سلسلة الدراسات الفكرية

القِيادة وتجربة الفِعل المقاوم

في لبنان



الدكتور غسان طه



بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 علم وخبر 200 / أد



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

القيادة وتجربة الفعل المقاوم

في لبنان

القيادة وتجربة الفعل المقاوم

في لبنان

إن الأفكار والاتجاهات الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي منتدى الفكر اللبناني



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب:	القيادة وتجربة الفعل المقاوم في لبنان
المؤلف:	د. غسان فوزي طه
الناشر:	منتدى الفكر اللبناني
الطبعة الأولى:	حزيران ٢٠١٠م - شعبان ١٤٣١هـ

القيادة وتجربة الفعل المقاوم



المؤلف

الدكتور غسان طه

الإعداد والإخراج الالكتروني

www.almaaref.org



الفهرس

المقدمة

شكلت المرحلة التاريخية التي انطلقت خلالها المقاومة الإسلامية في لبنان مرتكزاً أساسياً في الالتقاف الجماهيري حولها في سائر الأقطار العربية والإسلامية، ذلك أن المقاومة لم تطرح مشروعاً تحريرياً يتصل بالأرض اللبنانية وحسب، وإنما طرحت مشروعاً استنهاضياً يتطلع إلى إصلاح الوضع المأزقي في العالم العربي والإسلامي الناتج عن تقدم المشروع الصهيوني في المنطقة.

لم تكن المرحلة التاريخية لترتسم ملامحها منذ لحظة إصطدام الاحتلال الإسرائيلي بالمقاومة الإسلامية في لبنان، بل تمتد بتداعيتها الدراماتيكية إلى تحويل مجرى الصراع نحو الحلول الاستسلامية التي ارتسمت أولى ملامحها منذ كامب ديفيد وحتى ما بعد مؤتمر مدريد في مطلع تسعينات القرن العشرين.

في حين تجلت أولى الإخفاقات الصراعية بعدم نجاح المشروع الناصري والذي التفت حوله الشعوب العربية مظهرةً التأييد لعبد الناصر إيذاناً منها بحل معضلة الصراع، غير أنها انتهت إلى الإحساس

بالخيبة والمرارة والإحباط بعد نكسة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧.

وقد شكل بروز المقاومة الفلسطينية غداة النكسة أملاً جديداً من شأنه إعادة الإحساس بالقدرة واستعادة التوازن المفقود بالاستناد إلى نهج جديد في المقاومة الشعبية المسلحة كبديل عن منهج الاستخدام الرسمي في خوض الصراع. وقد شكلت المقاومة الفلسطينية موئلاً ومرجعية للاحتضان الشعبي الذي أظهرته الشعوب العربية والإسلامية بمعزل عن أنظمتها التي عانت من الانحدار والتراجع في هذا المجال بعد السقوط التاريخي للمشروع القومي في المنطقة.

غير أن لحظة دخول جيش الاحتلال الصهيوني إلى لبنان، والذي أدى بتداعياته إلى إخراج منظمة التحرير الفلسطينية، أعاد إلى الواجهة الإحساس بالخيبة والفشل بعد الآمال التي كانت معقودة على مشروع المقاومة الفلسطينية المسلحة، لاسيما وأن الجيش الصهيوني كان قد دخل إلى بيروت كأول عاصمة عربية منذ بداية الصراع العربي الإسرائيلي. وفيما كان المشروع الصهيوني يتخذ منحى تصاعدياً، راحت طلائع المقاومة الإسلامية التي تشكلت لحظة الاحتلال، توجه ضرباتها لجنوده في أماكن وجوده في مختلف الأراضي اللبنانية، فآذنت بخوض صراع مرير حتى تحرير الأرض والمقدسات.

كان يمكن للمقاومة أن تكون، بنظر الشعوب العربية، كإحدى التجارب التي سرعان ما تؤول إلى الأفول بفعل الإحساس بفقدان الأمل الناتج عن الخلل في التوازنات الموضوعية للصراع. ولكن بفعل الانكفاء الجزئي

للاحتلال من بيروت وصيدا وبعض مناطق الجنوب غدا هذا الواقع الجديد أحد الرهانات التي تزخر بالكثير من الايجابية في فعل التحرير المنشود، فراحت المقاومة تحظى بالتأييد الشعبي المتزايد بتزايد وتيرة ضرباتها المتكررة للجنود الصهاينة.

وقد عمدت المقاومة، بعد الانحسار الجزئي للاحتلال في منتصف الثمانينات، إلى مخاطبة الشعوب العربية والإسلامية حين أعلنت عن أهدافها في تحرير الأرض والمقدسات، وعن أنها تشكل النقيض للمشروع الصهيوني باعتبار أن الصراع معه يدخل في دائرة الصراع الوجودي الذي يفترض تضافر جهود الشعوب العربية والأمة الإسلامية على السواء.

وبذلك تكون لحظة الانطلاق قد ارتكزت على أهمية بارزة باعتبارها تشكل أهم الحلقات التواصلية مع النزوع التاريخي للشعوب العربية والإسلامية إلى التحرير، وكتجربة مضيئة بعد سلسلة من الإخفاقات التاريخية التي طرحت إلى الواجهة السؤال حول كيفية العمل للخروج من الوضع المأزقي الحاد لشعوب المنطقة.

وبطبيعة الحال، شكلت أولى نجاحات المقاومة بالتحرير الجزئي للأرض، بداية للاحتضان الشعبي. غير أن هذا الاحتضان مال إلى الإتساع بعدما أكدت المقاومة استمرارية الفعل المقاوم الذي كانت تدور رحاه اليومية على أرض الجنوب، وعلى وقع دك التحصينات والمواقع المنيعة لجنود الاحتلال والذي ترافق على مدى سنوات مع بروز الدور

الريادي لقائد المقاومة السيد حسن نصر الله بعدما كانت قيادة المقاومة يكتنفها الغموض وعدم الإعلان عنها لوجود الاحتلال على امتداد الأراضي اللبنانية، وبعدما تبوأ موقع القيادة فيها غداة استشهاد الأمين العام السيد عباس الموسوي.

ومما لا شك فيه أن الفعل المقاوم المتساوق مع المرحلة التاريخية، والذي تجسد باستمراريته على مدى سنوات، أتاح هذا الالتفاف الشعبي. ولكن هذا الالتفاف اتخذ له عنواناً رمزياً تمثل بنظرة هذه الشعوب للقائد الكاريزمي كأحد إنتاجات هذه المرحلة إذ ليس من الممكن، وعلى ضوء التجارب التاريخية للشعوب، أن لا تتخذ أي حركة شعبيةً كانت أو رسميةً عنواناً لها يتمثل بالقائد الذي يرمز إليها ويستند إلى العزم والتصميم والإرادة في المضي بمشروعه حتى النجاح.

وقد عدّت في العالم العربي رجالات على أنها قيادات كارزمية بنظر شعوبها لما امتلكته من هذه المزايا، وظلت تصنف في هذه الدائرة رغم أن مشروعها في التحرير لم يكتمل، ما يعني إن كارزمها مسنودة أيضاً إلى المرحلة التاريخية المأزقية التي يمتلك فيها القائد إرادة التحدي حتى ولو لم يكتب له النجاح في هذا المجال.

من جهة أخرى، فقد ساهمت تداعيات المرحلة التاريخية هذه، في جعل المقاومة تقفز إلى واجهة الأحداث جراء المزيد من الانكفاء بفعل مشاريع الاستسلام التي تواصلت حلقاتها مع مؤتمر مدريد واتفاق أوسلو وطابا ووادي عربة، والتي تزامنت مع عمليات المقاومة التي راح يعلن

قائدها عن استمرارها حتى تحقيق النجاح المنشود، والذي تجسد في التحرير عام ألفين. إن رهاناتها تمثل السبل المثلى لتجاوز الوضعية المأزقية للمرحلة التاريخية والتي شكلت فيها المقاومة انقطاعاً نموذجياً عن حلقاتها الدراماتيكية المتداعية دوماً، والتي كان يفترض توفير الاحتضان الشعبي لها.

على هذا الأساس، تشكل لحظة انطلاق المقاومة في تمفصلها مع المرحلة التاريخية التي اقتضت العمل المقاوم، أحد الأبعاد الأساسية التي تضيف الكثير من الأهمية لهذا العمل، لاسيما وأنه ارتكز بحد ذاته على سلسلة من النجاحات التي تستوجب العبور نحو اكتمال أبعاده الاستنهاضية، وهو ما يستوجب مقاربة الأسس التي أدت إلى هذه الحالة التضامنية ، خصوصًا الدور القيادي ، والفعل المقاوم كما تجسّد في خطاب القيادة نفسها كقيادة متجاوزة لدائرتها الجغرافية. فبالرجوع إلى الآراء والنظريات الواردة لدى علماء الاجتماع، نجد تنوعاً في المحددات الأساسية التي تجعل من الأفراد قادة كباراً. وربما يعود هذا التباين إلى اختلاف بيئة المقاربة، ومرحلتها الزمنية، ولكنها مع ذلك تمتلك أهميتها العلمية بكونها تخضع لحقل التجربة والدراسة الميدانية، قبل أن ترتبط بأهداف غائية محددة سلفاً أي بتقديم نظرة نمطية عما يجب للقائد أن يتحلى به من مزايا لكي يكون قائداً تاريخياً يمتلك القدرة على إدارة الناس، وعلى السعي نحو تغيير واقعهم نحو الأفضل، وهو خلاف ما درج عليه الفلاسفة السابقون كأفلاطون في جمهوريته التي لا

تدار على أفضل وجه ما لم يحكمها الفلاسفة أو يتفلسف فيها الحكام، أو في مدينة الفارابي الفاضلة. غير أن المقام هنا ليس مقاربة القائد كرجل سلطة يعمل بين الناس ويرتفع عنهم درجة لإدارتهم، وإنما يرتبط بقيادة استنهاضية تبرز أولاً، ثم يأتي فعل الانقياد وإعلان الولاء والسير معه نحو قضية محددة وهي قضية صراعية متجاوزة لما يمكن تسميته بفعل السلطة على أنه إدارة للشؤون الحياتية اليومية بين أفراد شعب بعينه، وإنما تطرح القضية على أنها قضية شعب أو أمة بأسرها بمقابل الآخر أو العدو المفترض مقاومته حتى حلّ هذه القضية الصراعية. ومن هنا تأتي المقاربة لهذه القضية بالبحث والتحليل للوقوف على الأسباب التي جعلت منها قضية أمة بعينها، تلتف حولها وتعلن التأييد لها ولقائدها باعتباره يشكل رمزاً لها ويعمل من أجل نجاحها والوصول بها نحو الأهداف المنشودة. على هذا الأساس سوف تتم الاستعانة بما توصل إليه علماء الاجتماع جرّاء مقاربتهم لموضوع القيادة، وكذلك بما يتحدد عبر الواقع نفسه باعتباره يشكل خصوصية على النحو الجدلي الذي يدفع إلى بروز القائد الكاريزمي، فيما يعمل هذا القائد أيضاً على تغيير الظروف وجعلها أكثر توافقاً مع ما يرمي إليه من أهداف.

الفصل الأول

تجسدات القيادة

١- القيادة -حفريات المفهوم

تفترض القيادة وجود علاقة بين طرفين: القائد الذي يتمتع بصلاحية الإمرة والسلطة والنفوذ والجمهور أو الشعب أو الأمة التي تسلم بوجود هذه القيادة وتذعن لتوجيهاتها ولأوامرها وتدين لها بالطاعة والولاء.

ولكن من أين تتأتى هذه المشروعية للقيادة فيما تؤول إليه من حق التمتع بالإمرة والنفوذ؟ وكيف يمكن للجمهور أو جماعة من الناس أن تسلّم وتدين بالخضوع والطاعة؟

فلا يمكن لهذه العلاقة بين الطرفين أن تنشأ من فراغ، لاسيما أنه ومن حيث مقتضيات العقل، ليس ثمة ما يبرر لفرد من الأفراد أن يتمايز عن الآخرين ويعلو عليهم بحكم المساواة التي تقتضيها الطبيعة. فالأفراد متساوون بحسب الفطرة بإدارة شؤونهم الذاتية، والفرد يأبى الخضوع للآخرين إلا إذا كانت ثمة مبررات موضوعية أو طبيعية تحتم ذلك.

ومـن بين هذه المبـررات المنحكمة إلى الطبيعـة، العلاقة بين الأب وأبنائـه، وهي تفترض في أحد وجوههـا حق الأب في الإشراف والتدبير وصـون مصالح أبنائه بحكـم حاجة الأطفال للانقياد لـه لعجزهم عن إدارة شؤونهم الذاتية(١).

ثـم تأتي القوانيـن والأعراف والتعاليم الدينيـة لتكرس هذه العلاقة في حدود معينة. فالقيـم في المجتمعات الريفية تقتضي تقديم الطاعة للأب ولكبير السن، والقوانين الحديثة تعترف للأب بسلطة الوصاية على أبنائـه حتى بلوغهـم السن القانونية، ثم يأتي الديـن ليحثَّ على أواصر تلـك العلاقـة التي تستمر حتى ما بعد سن الرشـد حتى ولو بلغ الوالدان أرذل العمر.

وما يسري على العلاقة الوالدية يسري على سائر التجمعات البشرية حتـى تلـك الموغلة فـي القـدم والسابقة على وجـود الدولـة والتنظيم السياسي بالمعنى الحديث.

لقـد لعبت الأعراف دوراً بارزاً في تحديد الزعيم القائد الذي ينبغي علـى الجماعـة أن تدين له بالـولاء والطاعة. على أن تلـك الأعراف لم تنشـأ من فـراغ، وإنما مما يشكله الزعيم من فائـدة تعود على الجماعة في التماسك والتضامن والمنفعة التي تعبر عن حاجة هؤلاء الأفراد.

إن مـا تقدمـه لنـا المجتمعات القبليـة البائدة في أميـركا الجنوبية

(١) ناصيف نصار، منطق السلطة، دار أمواج ، ١٩٩٥،ص ٢٣

وأفريقيا هو صورة مدهشة لتلك العلاقة من التنظيم بين الزعامة القائدة والجماعة المطيعة، حيث تقدم تلك المجتمعات نماذج من الزعامة من حيث مواصفاتها ودورها وتصنيفها.

خلال المعارك الحربية يتمتع الزعيم بسلطة مطلقة النفوذ عندما تواجه الجماعة خطراً خارجياً أو حين شن الحملات الحربية. على أن تتوقف هذه الزعامة لتؤول إلى زعيم السلم الذي عليه نشر السلام داخل الجماعة وفض المنازعات الداخلية وحلّ الاختلافات ليس عن طريق استعماله لقوة لا يمتلكها أصلاً، وإنما بالاتكال على نفوذه وسمعته وفضائله ونزاهة كلمته التي تتكرس بفضل قدرته على إرساء السلم بين الجماعة، وقدرته الكلامية فضلاً عن وجوب كونه معطاءً من خيراته ولا يسمح لنفسه برفض الطلبات العديدة من قبل أتباعه.(١)

وإلى جانب الزعامة العسكرية والمدنية ثمة دور ريادي لرجل الدين الذي يتعين عليه القيام بالطقوس الدينية، وهو ما يعبر عن أزلية النظم الدينية بغض النظر عن كونها مقنعة، أو غير مقنعة ويفسّر ذلك لدى علماء الاجتماع، أن الإنسان منذ بدء وجوده في الغابة حاول تفسير ما يجري حوله من حركات الطبيعة وظواهرها الغامضة التي لم تكن لديه القدرة على التأثير فيها، فافترض - هؤلاء العلماء - وجود قوى خفية تحرك هذه الظواهر، أو أنه لجأ إلى الفكرة الدينية للتخلص من حالة الخوف

---

(١) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، ترجمة محمد حسين دكروب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩١، ص ٣٢.

والشـك، ذلك أن للدين وظائفـه الهامة فهو يساعد على تفسير الأحداث المعقـدة والتي تبدو بصـورة ظاهرة غير قابلة للتفسيـر ولهذا يستخدم الاحتفـالات والطقوس والعبادات الدينية ليضمـن الاتصال بتلك القوى عن طريق وسطاء يعتقد أن لهم قدرة كبرى على ذلك الاتصال.(١)

وبمعـزل عمـا يمكن أن يوجه لهـذه النظرية التي تفسـر نشوء الدين بسبب الجهل والخـوف خصوصاً من قبل العاملين في هذا الحقل نفسه الذيـن يعـدون ذلك لا يخـرج عن دائـرة الافتراض التـي لا ترقى إلى الملاحظة العلمية لكون رواد نظرية الخوف والجهل متقدمين زمنياً عن المجتمعـات البائدة ولا يمكن إرساء نظرية علمية في حقل اجتماعي مع افتقاد العالم والباحث إلى المحايثة والمزامنة مع الظاهرة.

وبحسـب الفهم الديني لاتّباع الديانـات السماوية ومنها الإسلام، أن ليس ثمـة مجتمعات خارج دائرة النبوّات، وأن ما كان قائماً هو انحراف عن دائرة الاستجابة للدعوات.

علـى أنـه ما يهـم في هذا الأمـر هو العـودة إلى توصيـف القيادة أو الزعامة الدينية فـي تلك المجتمعات والتي خضعت إلى تدوين وظائفها من خلال ملاحظـات الانثروبولوجيين بمعزل عـن تفسير أسباب نشوء ظاهـرة الدين. الزعامـة الدينية في اغلب القبائـل الأميركية الجنوبية هي للساحر الشامـان، حيث للشامان صورة مهمة جداً لدى المجتمعات

(١) فهمي سليم الغزوي وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، دار الشروق عمان ١٩٩٢. ص ٢٤٠.

الهندية، فهو يبدو محترماً مثيراً للاعجاب وللخشية، ذلك أنه الوحيد القادر داخل الجماعة، والذي يمتلك القدرة ما فوق الطبيعية للسيطرة على عالم الأرواح والأموات والخطر، إن هذا الساحر الشامان هو عالم يسخر معرفته لخدمة الجماعة من خلال معالجته للأمراض من خلال قواه الخارقة على بعث الحياة والسيطرة على الموت[١].

ومن بين هذه القبائل قبائل الجيفارو التي تسكن حوض الأمازون ، والتي لم يُعرف أفرادها إلا منذ القرن الخامس عشر والذين رغم استقبال القادمين لهم في أوائل القرن العشرين لكن احتكاكهم المؤثر بالإنسان الأبيض لم يحصل حتى الآن حيث بقيت هذه القبائل من القبائل النقية بعد قبائل الأقزام في أفريقيا[٢].

وفي الدولة الحديثة حيث يغدو الفرد مواطناً له حقوق وعليه واجبات تدخل في موارد كثيرة بينها الحق في الحياة والتجمع، والارتقاء والمشاركة السياسية، والاعتراض، وواجب الخدمة والتفاني بحب الوطن والتقيد والطاعة للقوانين الصادرة عن السلطات العليا، حيث تتكرس سلطة الإمرة والتزعم لدى النخبة القائدة، غير أنها ترتبط من ناحية أخرى بموجبات تتصل بالأفراد الذين عليهم الانقياد والخضوع، وهي موجبات ناشئة من طبيعة الارتباط بمصالحهم وغاياتهم وأهدافهم العليا منها والدنيا، وبمدى التزام القيادة بالأعراف والقوانين التي

(١) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مصدر سابق ، ص ١٤٧.
(٢) د. علي وهب، الجغرافيا البشرية، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٦، ص ١٤٢.

اقتضت ممارستهم لتلك التراتبية وإلا وضعت القيادة على محك المشروعية وجرى التشكيك والرفض والتمرد والعصيان ومحاولة تغييرها واستبدالها.

٢-أنواع القيادة

الزعامة أو القيادة هي من اللوازم المفترضة لدى الجماعات على امتداد التاريخ لما تضطلع به من وظائف تختلف بحسب المرحلة التاريخية وبحسب درجة الرقي الحضاري التي تقف عندها هذه الجماعات، وهي بحسب ذلك الحال أنواع، بينها ما يلي:

أ-القيادة الكاريزمية

خضع مفهوم الكاريزما كغيره من المفاهيم المتداولة في حقل الدراسات الاجتماعية للمقاربة والتحليل من قبل العديد من المفكرين الذين تناولوا الكاريزما كمفهوم وكدور ووظيفة تسهم في إحداث التغيير الاجتماعي.

ومن الرواد الأوائل بين هؤلاء المفكرين ماكس فيبر، الذي كان يرى أن هناك فترات تحوّل تمر بها المجتمعات بفضل وجود عباقرة وأبطال أو انبثاق فئة من الحكماء والأنبياء والمرشدين أو العلماء التكنوقراطيين.

والكاريزما مصطلح يعني "هبة الله" وهو يطلق على شخصية الفرد لتميزه عن غيره من الأفراد العاديين، بحيث ينظر إليه كقائد مزوّد بقوى وخصائص خارقة للعادة غير متوفرة في عموم الناس. قد يكون

مصدر الصفات إلهياً، أو عبارة عن صفات مثالية تدفع صاحبها إلى مرتبة القيادة في نظر الناس. يوجد القائد الكاريزمي عادةً في حالات الوهن الاجتماعي والديني والاقتصادي والسياسي ويرتكز على الطاعة للبطل والتضحية من أجل تأدية رسالة.

والقائد الكاريزمي لا يظهر عادةً في الميدان وحده، بل يظهر عادة مع جماعات ثائرة تبقى مدينة في نشأتها واستمرارها له.[١]

ويمكن للقيادة الكارزمية أن تقوم بوظائف نفسية واجتماعية وتؤمن المساندة في الانتقال من مجموعة قديمة من القيم إلى مجموعة جديدة منها. والقائد في مثل هذه الحالة هو مصدر الشجاعة والإقدام والرغبة في نبذ القديم والحماس من أجل التغيير ومن أجل تثبيت الجديد.

أما التغيير الذي يفرضه القائد الكاريزمي فهو لا يعود له وحده، بمعنى أنه ليس مستقلاً عن الظروف الموضوعية التي يظهر فيها القائد، فبنظر فيبر أن ثمة خصائص للفترة التاريخية التي تقتضي وجود القائد الكاريزمي، ومعنى ذلك أن القائد الكاريزمي قد لا ينجح في بعض الأحيان، لأن الفترة التاريخية التي يظهر فيها تكون غير مؤاتية لنجاحه.[٢]

ولا ينكر عالم الاجتماع بيار بورديو العناصر الذاتية في فهم الظواهر الاجتماعية وبينها الرجال العظام، ولكن ترتبط بعامل موضوعي آخر

(١) د. عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٦، ص ١٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

هــو الوعي الجماعي للأفراد حيث يقول: إن شهرة الأشخاص الكبار من علمــاء ومفكرين وسياسيين وعسكريين وأنبيــاء ومرسلين الخ، مرتبطة بوعي الأفراد الذين يعتقدون بها. وإذا توقف هذا الاعتقاد، وما يستتبعه مــن مواقــف وتصرفــات، تــزول شهرتهم لا محالــة، ذلــك دون اعتبار الوعي عامــلاً منفصلاً عن طبيعة السلطة أو عــن الظروف الاجتماعية والتاريخية التي وجدت فيها، والوعي في هذه الحالة عنصر منها.[١]

إذاً ثمــة نوع من القيــادة كونها تمثل علاقة سلطة وإمرة، يدور حولها جدل كبير في ميــدان البحوث الاجتماعية ويتناول بنيتها وأسس تشكلها والــدور الذي تلعبه لدى الجماعة، لكون علاقة الإمرة تتدرج صعوداً لدى هذه القيادة بحسب القائد وبحسب القضية التي يعمل من أجلها، ومنهج الوصول إلى الأهداف ومدى ارتباطها بالجماعة.

وينطلــق الســؤال حول القيادة الكارزميــة: ما الذي يجعل هذا النوع مــن القيــادة يتمتــع بجاذبية لــدى الجماعــة أو الشعب أو الأمــة فتقدم لهــا الطاعة وتستمر في إعــلان ولائها لها وتكرس الاعتــراف باستمرار اضطلاعهــا بالــدور القيادي في عــدة دورات انتخابية كمــا في القيادة الكارزميــة الرسميــة في المجتمعــات الديمقراطية، أو فــي المجتمعات التي يسود فيها الاستفتاء، أو في القيادة غير الرسمية التي تتبوأ موقعها القيــادي دون الحاجة إلــى الأطر الانتخابية بل تتكرســ زعامتها بسبب

---

(١) د. علي سالم، منهجيات في علم الاجتماع، دار الحمرا، بيروت ١٩٩٢، ص ١٧٦.

الاعتراف الشعبي بها. وقد يتخطى الولاء لها حدود الطاعة، إلى تماهي الأفراد معها تماهياً كلياً حيث تدخل في وجدان ووعي الأفراد ويتخطى دورها حدود السلطة إلى السلطان الذي يأخذ النفوس على محمل الطاعة والتقيد بأوامرها حتى ولو طلبت من الأفراد التضحية بالنفس من أجل الوصول إلى الأهداف التي يطرحها القائد؟

درج الاعتقاد على أن تشكل هذا النوع من القيادة أساسه مواصفات سلوكية وعقلية ونفسية وجسدية يمتلكها الزعيم القائد. ويجب أن يوحي القائد الكاريزمي بالثقة وبالكفاءة والدرجة العالية من التميز عن الآخرين.

غير أن هذه الأفكار تبقى أسيرة أطرها النظرية، وتدخل في باب الافتراض والغائية بمعنى أنها تجسد الأسس التي ينبغي للزعامة الكارزمية امتلاكها وليس الزعامة بعينها كما هي.

فثمة كثير من الزعماء الكارزميين ممن لا تتكامل لديهم هذه المواصفات وهي ناشئة بطبيعة الحال من قصور الإنسان وعجزه ومن عدم وجود الإنسان الكامل أو إنسان ما فوق.

ولذلك انتقلت الدراسات نحو التحديدات الميدانية للقيادة أي دراستها كما هي في كينونتها وليس من ناحية ما يجب أن تكون عليه هذه القيادة.

ذلك أن تصور ما ينبغي على القائد التحلي به ليس واحداً بين الدارسين سواء كان قائداً عادياً أو كارزمياً.

يرى باريتـو أن نخبة القيادة تتشكل من الأكفأ والأفضل والأحسن أي مـن الذين حققـوا نجاحات على المستوى الاجتماعـي وليس الأخلاقي. وهـذه النخب تملك من النفوذ ما يسمح لها بأن تؤثر في خيارات الأقلية الحاكمـة وتحتل مواقـع مميزة في الهـرم بفضل مداخيلهـا أو حظوتها الاجتماعية.

يرفض ريمون آرون نظرية باريتو ويرى أنـه منافٍ للمنطق أن ينتمي إلى مفهوم النخب كل الذين حققوا نجاحات بمن فيهم جماعة اللصوص، ويرى أنه من الصعب جداً تحديد شكل الإطار الذي تتم في داخله صناعة النخب من مواد النجاحات. ويربط مبدأ تقسيم النخب بممارسة النخب الديمقراطيـة التعدديـة. فهناك قادة سياسيون، وقـادة إداريون، وقادة روحيـون محركون للجماهيـر. بمعنى أن الممارسـة الديمقراطية تأخذ بمبدأ المفاوضة والتوافق بين النخب دون المس باستقلالية الجماعة[١]. بـإزاء ريمون آرون فـي نقده لباريتو باستبعاده الجانـب الأخلاقي، فإننا نجـد المجتمعـات الحديثـة ما زالـت تعتبر هـذا الجانـب مطلوباً لدى القادة، وتـكاد تملأ الصفحات اليومية للجرائـد بالحديث عن الزعماء القياديين لـدى الغرب متكلمة عن انخفاضـ شعبيتهم وعدم اعتبارهم قـادة عظاماً بسبب الفضائح التي يتعرضـوا لها من هدر وفساد وكذب، وعلاقات غرامية.

---

(١) كلير صعب، مجلة العلوم الاجتماعية، صادرة عن مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية الجامعة اللبنانية، تشرين أول ١٩٩٧.

أما وجهة النظر التي يمثلها ريمون آرون والتي تحصر تشكل النخب القيادية بطبيعة المجتمعات الديمقراطية وبتوزيع القادة على مراتب وقطاعات متمايزة، وبأنها تسود انطلاقاً من مبدأ التوافق والمفاوضة التي تحول دون تعارض مصلحة النخب القيادية مع مصلحة العامة أو دون أن تعلو عليها، فتلك الوجهة تسود حالياً في الغرب لدى العديد من المفكرين وتصح على القيادة غير الكارزمية التي لم يعد لها وجود في الغرب انطلاقاً من الظروف الموضوعية التي تلعب دوراً في هذا الشأن، ومنها الآلية الديمقراطية التي تتيح للنخبة القيادية الوصول إلى سدة الموقع القيادي. تلك الآلية، تجعل القائد عاجزاً عن الاستمرار بموقعه القيادي بسبب طبيعة التنافس التي تسود، فضلاً عن استناد هذه الآلية إلى مبدأ الأكثرية التي تجعل قادة كثراً يتبوأون هذا الموقع القيادي باستحواذهم على أكثر من نصف عدد الناخبين ما يعني أن قيادتهم لا تعني التسليم الغالب أو الكلي. فثمة أقل من النصف أو الثلث أو الربع ممن لا يجدون فيه المؤهلات التي تناسب طموحاتهم بل كل ما في الأمر تتكرس سلطته بفعل القانون، حيث يجب التقيد بالمراسيم والتشريعات التي يصدرها القائد مع فريقه العامل في المؤسسات الدستورية والتي تنطبق على الجميع[1].

وقد يسود الاعتقاد، أنه لم تعد ثمة حاجة للكاريزما في الزعامة،

---

(١) أنظر كلير صعب، مجلة العلوم الاجتماعية، مصدر سابق.

أي إلى الرجل العظيم أو الخارق للعادة في المجتمعات الغربية بسبب آلية صدور القرار السياسي عن هيئة جماعية، ووجود معارضة تستطيع استخدام نفوذها في التأثير على مجريات القرار السياسي. فضلاً عن ذلك، ثمة استشاريون متخصصون ومراكز دراسات من ذوي الكفاءات تعين على اتخاذ القرارات السياسية وعلى رسم السياسات الاجتماعية والاقتصادية وعلى التخطيط في سائر المجالات.

إن وجود القيادة الكارزمية يرتبط لدى بعضهم بالمجتمعات السابقة على الديمقراطية خصوصاً في المجتمعات الشرقية التي يستبد فيها الزعيم وتتكرس زعامته بسبب شيوع الجهل وانعدام الوعي الزائد لدى الجماهير بمصالحها، فضلاً عن عقدة الانسحاق التي تسلب شخصية الأفراد على مدى حقبات تاريخية من ممارسة الطغيان والتي تجعل الأفراد مشدودين نحو التعويض عن الشعور بالنقص عن طريق التماهي مع القائد، الذي تجده ممتلكاً لصفات تجعل منه رجلاً عظيماً فتتماهى معه، ليسود لديها شعور بالتفوق والعظمة. هذا التماهي بين الحاكم والشعب يتم حين يصبح الكل واحداً. في الليلة التي مات فيها عبد الناصر عام ١٩٧٠، ذهل العالم لذلك الذي صنعه العرب على امتداد أقطارهم، ولا سيما ما فعله المصريون من بكاء وعويل على نحو هستيري، ثم كانت الجنازة التي سار فيها ملايين البشر يبكون ويصرخون ويلطمون الخدود. ومن وجهة النظر الغربية، فإن ما جرى في أسبوع وفاة عبد الناصر بدا غير مفهوم على الإطلاق لدى العقل

الأوروبـــي، إذ كان من الصعب على قوم تخضع حياتهم لعمليات حسابية عقلية، أن يفهموا تلك الحالة من الاكتئاب الجماعي التي بدت لهم كوباء انتشر خلال ساعــات معدودة، فاستسلم الناس له، بحيث فقدوا القدرة على تمييز ما يفعلون، فغاب عقلهم الواعي وتركوا قيادتهم لمجموعة من الانفعالات الحادة.(١)

ولأن صورة عبد الناصر في المنظور الغربي الاستعماري كانت صورة دكتاتــور وطاغيــة يحتقر الشعب بقسميــه الواعي وغيــر الواعي فيعامل الأوليــن بالمعتقــلات والسجــون، ويخضــع الآخرين لعمليــات غسل مخ عنيفة تحول بينهم وبين الوعي بمصالحهم، فقد كان طبيعياً وفق تطبيق المحكمــات الأوروبيــة أن يفــرح المصريــون لموت من عذبهــم وامتهن إرادتهــم، أو أن يكتفــوا بالترحم عليــه انصياعاً للمشاعــر الدينية التي تؤثــم الشماتة بالموت. أمــا أن تنتشر تلك الحالــة العنفية من الاكتئاب الجماعي فإن الأمر يصبح عسيراً على الفهم.

هــذا الاعتقــاد هو خاطئ بلا شك لأن طبيعــة المجتمع البشري حتى مــع نظــام العولمة يقدم نمــاذج تُظهــر أن القائد العظيــم أو المتميز لا زال مطلباً ويمكــن أن يحيل إلى طبيعة الفطرة البشرية، فما الذي يرفع أشخاصــاً في عصرنا الحديث إلى الاستمــرار كرجال قياديين في سدة الحكم لــدورات انتخابية متتالية من أمثــال مارغريت تاتشر التي لقبت

(١) - امام عبد الفتاح امام، الطاغية، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٨٣، المجلس الوطني الكويت ،ص ٣٣٦.

بالمرأة الحديدية في بريطانيا، أو أمثال هلموت كول في ألمانيا وميتران في فرنسا قبل أفول نجم هؤلاء الزعماء.

لقد عرفت أوروبا وأمريكا زعماء عظاماً بنظر شعوبهم كنابليون وديغول وجورج واشنطن وجون كيندي وريتشارد نيكسون، ولكن من غير الصحيح أن الديمقراطيات الحديثة لا تستوجب رجالاً عظماء بل إن سرعة أفول نجم الزعماء الحاليين بسبب فشلهم في تحقيق الرضا لدى شعوبهم على مستوى الداخل، وفشلهم في النجاح في المهمات التي تصدوا لها على صعيد الأمم في الخارج، من حرية وتنمية وسيادة الوفاق والسلام بين الشعوب، تجعل من القيادة الكارزمية مطلباً لدى هذه المجتمعات وهم يفتقدون إليها. وفي هذه الوجهة يرى روبرتو عالم الانتربولوجيا في جامعة نوتردام الأميركية، أن ثمة مواصفات مطلوبة للزعيم وهي مواصفات لم يكن متوقعاً من زعماء الماضي أن يتحلوا بها، فهو يحدد المميزات المطلوبة من الزعيم بقوله: "يجب أن يكون الزعيم دون جواناً، أنديانا جونز، مغامراً وأينشتاين مجتمعين في شخص واحد، يجب أن يكون جذاباً مثيراً وبارداً رابط الجأش في آن واحد" ويتابع "إن دول أميركا اللاتينية والعالم العربي لديها مشكلة النظرة الألوهية والمنزلة المقدسة التي تراها في زعمائها. في المقابل إن الديمقراطيات الحديثة لديها مشاكل من نوع آخر تحاول دائماً استنباط

أفكار جديدة، أما زعماؤها فإنهم سريعو الأفول"[1].

لقد غابت القيادة الكارزمية عن ساحة الغرب ولكن ذلك لا يعني غيابها عن الوجدان الذي إستبدلها بنماذج أخرى تم إحلالها مكانها، وهي النماذج الناجحة التي تقدم صورة الإنسان الكامل أو صورة البطل الأسطوري التي تصنع بحرفية ماهرة في أفلام السينما في هوليود، ذلك البطل الذي يمتلك كل امكانيات القوة والقدرة والذكاء والمبادرة، والذي يظهر بوجهه الحسن وقامته المتناسقة وقدرته على في السيطرة على زمام الأمور حين تحبس أنفاس المشاهد وتتسارع نبضات قلبه ويتصبب عرقاً، إزاء البحث عن حل المعضلة التي حبكت بذكاء مدهش، حينذاك يظهر البطل الواثق من نفسه هابطاً من طائرة أو سيارة تسير بسرعة جنونية حاملاً بندقية لا تكاد رصاصاتها تنفذ، فترتاح النفوس. إن تلك النماذج من الأبطال ليست من صنيعة المخرج فحسب، وإنما هي صنيعة الواقع الاجتماعي المؤلم الذي يعيشه الغرب بالداخل من سرقة وعصابات مخدرات، وجريمة منسقة تستوجب السيطرة عليها أبطالاً ونماذج على غرار ما تقدمه هوليوود، وهي وليدة أزمة علاقة الغرب مع الخارج في زمن الحرب الباردة وفي فيتنام، وصراعه مع ما يدعوه مع الإرهاب الأصولي.

وليس من الغرابة والحال كذلك، أن يصل بطل السينما في وجدان

(١) انظر كلير صعب، مجلة العلوم الاجتماعية، مصدر سابق.

تلك الشعوب إلى مصاف الرجال العظام، الذين يمني الفرد نفسه بمشاهدتهم عن كثب والحظوة بتواقيعهم، حتى تكاد الساحات تمتلئ لأجل مغنٍّ أو ممثل مشهور بجماهير أكثر مما يستطيع حشده رجال السياسة الماهرون. وليس من العجب والحال كذلك، وصول ريغان من السينما إلى سدّة الرئاسة الأمر الذي يحمل في طياته دلالات، بينها الرغبة الشديدة في إسقاط صورة البطل من عالم السينما إلى عالم الواقع، أي عالم السياسة الذي يفتقد إلى هذه النماذج التي باتت حاجة مجتمعية، بعدما فقدت الكثير من المزايا والصفات الحميدة التي هي مطلب بشري على أية حال.

ب- القيادة الرئاسية

تكتسب هذه القيادة دورها من القوانين والمبادئ والأسس التي تضعها الجماعة سواء كانت جماعة أو شعباً في دولة، وهي تحصل عادة بموجب التعيين أو الانتخاب وبمدى رؤية الجماعة أو الشعب لزعامتها أو قيادتها من قدرة على الإضطلاع بهذا الدور بسبب التحلي بمواصفات ذاتية واستعدادات تم اكتسابها بفعل الخبرة والمران والجهد المضني والعمل الدؤوب.

وبمجرد الاضطلاع بهذه المكانة، تفترض طبيعة هذه المكانة ممارسة الدور القيادي، وإظهار الطاعة والانقياد من الآخرين طالما حافظت القيادة الرئاسة على التقيد بالصلاحيات الممنوحة، وبغايات وأهداف ممارسة السلطة.

على هذا الأساس يمكن تسمية هذا النوع من القيادة بالقيادة الرسمية لاكتسابها الطابع القانوني في الاستحواذ على المكانة وممارسة الدور.

فموارد التسليم والاعتراف بدور هــذه القيادة ليس منوطاً بالقوانين وحدهــا دائماً، وبرؤية الأفراد لقدرتهــا على تحقيق غاياتهم وأهدافهم. لذلك يمكن أن يتعرض هذا النوع من القيادة للكثير من التشكيك والرفض حين يشعر الأفراد بعجز القيادة عن تحقيق ذلك، فضلاً عما يتعرض له من تحدي إقصائها عن السلطة بفعل رغبة آخرين ممن يجدون أنفسهم مؤهليــن للاضطلاع بهذا الدور مستفيدين من القوانين التي تسمح لهم بالتنافس على السلطة، لكن في العمق، وبمعزل عن القوانين التي تضعها الــدول كآليات لتــداول السلطة، تبقى السلطة. مطلبــاً إنسانياً لما تمثله مــن جاذبية لا تقوم فقط على الوسائل الهائلــة التي تضعها في تصرف صاحبهــا، بل تقــوم أيضاً على الغموض الذي يكتنــف العلاقة بين إرادة الحاكم الخاصــة وإرادة الدولة الواحدة الجامعة. فمن الطبيعي والحال هــذه، أن يتزاحم الطامحون إلى السلطة في الدول، وأن يكون تزاحمهم شديــداً وقاسياً بحيــث لا ينتهي مؤقتــاً إلا بغلبة تامة لواحــد منهم على الآخرين أي بفوزه بتفويض السلطة[١].

ج- القيادة الدينية

وهي شــكل آخر من أشكال القيادة لكونها تترتب عليها علاقة الإمرة

(١) ناصيف نصار، منطق السلطة، مصدر سابق، ص ١٥٣.

والطاعة بين القائد الديني والأتباع. وهم بوصفهم مؤمنين بدين أو مذهب ما من مذاهب الدين، عليهم الانقياد والانصياع وتقديم الطاعة للقائد الديني الذي يتصدى بوصفه عالماً بأحكام الدين وبعالم السماء والغيب، لتفسير وشرح وتبيين تلك الأحكام وما يتصل بها من بعض الغموض، ومن توضيح لدلالاتها المتعلقة بالطقوس الدينية ومراسم العبادات وأشكال تأديتها.

فشرط تلك العلاقة هي المعرفة والتعمق والفهم من قبل القائد الديني لأحكام الدين للقائد الديني، والتي تجعله متمايزاً عن غيره من رجال الدين وعن عامة المؤمنين فضلاً عن التقيد بأحكام الدين ومترتباته أكثر من غيره.

وقد يطرح القائد الديني نفسه بين الأتباع فتكرَّس قيادته لديهم بوصفهم عامة المتدينين أو يجري انتخابه من قبل نخبة من رجال الدين كمجمع الكرادلة بانتخابهم للبابا الذي هو رأس الكنيسة لدى المسيحيين، أو لجنة من الخبراء لدى بعض الطوائف الإسلامية، أو بواسطة التعيين الرسمي من قبل السلطة السياسية التي تنأى بنفسها عن احتكار السلطة الدينية بوصفها سلطة تتعلق بشؤون الآخرة دون شؤون الدنيا التي هي من متعلقات السلطة السياسية.

أما الشرط الآخر في تقديم الطاعة، فمرده إلى شعور المؤمنين تجاه هذه القيادة بتلبية رغبتهم العميقة والدفينة في الخلاص الأخروي بعد الموت أو نيل السعادة في دخول الجنة.

تبرز تعبيرات هذه الطاعة من خلال الانقياد والالتزام بإرشادات وتوجيهات وإفتاءات القائد الديني دون أن يترتب في الخروج عنها أي جزاء مادي أو دنيوي كما في القيادة الرسمية وإنما الجزاء هو جزاء أخروي يعود إلى إحساس المؤمن بالذنب وبعواقب الأمور في عالم الآخرة بحسب إتساع دائرة المخالفة والخروج عن جادة الصواب الديني، أو عن جادة الفهم الذي يقدمه القائد الديني بوصفه منتمياً لإحدى طوائف هذا الدين والتي تتمايز عن غيرها من الطوائف.

وكلما كان ثمة مشاكلة في الانتماء بين القائد والأتباع، كلما اشتدت علاقة الإمرة والسلطة وتوثقت، وكلما اتسعت دائرة الابتعاد عنها وهنت وضعفت.

الفصل الثاني

القيادة ومحددات الاستنهاض

١- الرمزية الدينية للقيادة

أ- دور الرموز

تلعب الرموز بشكل عام دوراً في إحداث التعاضد والتضامن بين أفراد الجماعة وشد بعضها إلى بعض. ولكن قبل كل ذلك، ينبغي القول، أن ثمة طريقة أكثر بساطة في تعريف الرمز أنه «**شيء ما يحل مكان شيء آخر ويستدعيه**». إن تمثالاً معيناً يذكّر رمزياً بشخصية أو حدث أو فكرة، ويضمن لها بذلك وجوداً وفعلاً مستمرين. إن أي كلمة تحل رمزياً محل شيء، تثير ذكراه دون أن يكون الشيء المادي ضرورياً[١].

وللرمزية أهمية بالغة في حياة المجتمعات البشرية سواء كانت تقليدية أم حديثة.

وتنبع أهمية الرمزية من وظيفتها في المشاركة والاتصال بين

(١) غي روشيه، مدخل إلى علم الاجتماع، ج١، تعريب مصطفى دندشلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٣، ص ١٠٧.

الجماعات ومن تأثيرها في الحياة الاجتماعية، ومن كونها تفيد بصورة أساسية في تجسيد الحقائق المجردة، العقلية أو الأخلاقية في المجتمع، وتجعلها مرئية وملموسة.

فالجماعات هي كيانات مجرّدة تحتاج إلى رموز لتذكيرها، إلى الأعضاء الذين هم جزء منها، أو لتمييزها عن الرموز الأخرى، أو لتثبيت وجودها بنظر الآخرين. هذه هي حالة الجماعات القومية أو الإثنية التي تتمثل لنا برموز متنوعة: علم، شعار الشرف والنسب، نشيد وطني، لون مميز، رجل دولة، رئيس الدولة، الملك، رئيس الجمهورية... مؤسسة سياسية، التاج البريطاني، الأسد البريطاني، القندس الكندي الخ... إن هذه الرموز لا تساعد فقط على تقديم الجماعات وتمثيلها بصورة حسية، وإنما يمكن كذلك أن تستخدم من أجل أن تثير أو تنمي شعور الانتماء عند الأعضاء وتضامنهم. هذا ما يسعى إليه ويثيره مثلاً إنشاد النشيد الوطني من قبل حشد من الناس، أو جولة من جولات رئيس الدولة في الظروف المؤاتية، أو كاريكاتير مظهراً الشخصية النموذجية وهي تجابه مشاكل الجماعة أو رفع العلم أو القسم به، حتى أن احترامه يصل أحياناً إلى حد القداسة الأسطورية التي ينشأ عليها الشاب الأميركي ويكبر، وكيف يتعلم احترام الشارات والرموز التي تحيط به[1].

الرمزية الدينية تلعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان لما لها من أدوار

(١) المصدر نفسه، ص ١١٥.

تصل الإنسان بعالم السماء، وتحدد العلاقات التضامنية بين الأفراد، ولكونها تنطلق إلى رسم الغايات المفترضة في نظام العلاقات الاجتماعية خصوصاً بين جماعة المؤمنين، والتي تظهر تعبيراتها في ميادين شتى كالاحتفالات والطقوس، واللباس، التي تطبع الانتماءات، وتبرز خلالها الحالة التضامنية بالمعنى الصوفي مع رجال الدين بوصفهم عناصر مكونة للرمزية الدينية.

ب- المكانة الدينية

بطبيعة الحال فإن مقاربة شخصية السيد حسن نصر الله، تعين على الفهم لما لشخصه وللدور والوظيفة التي يضطلع بها كرجل دين ولما للرأسمال الديني من دور في عملية الجذب وشد الأفراد إليه وتكريس موقعه القيادي.

مما لا شك فيه أن المكانة لا تحدد الدور فحسب، وإنما تحمل في طياتها سلطة رمزية هي سلطة الكلام التوجيهي والإرشادي فيما يتصل بحاجة الإنسان إلى الإرشاد في معرفة وتأدية فروضه الدينية، إذ يكفي أن يدلي رجل الدين بإفتاءاته حول بعض الأمور حتى يلجأ الفرد، - بحسب طبيعة ودرجة الالتزام الديني لديه - إلى تطبيق ما تناهى إلى سمعه ووعيه، تطبيقاً لا يحوجه بعد ذاك إلى الشعور بانتقاص في التزاماته الدينية على النحو الفردي.

فلكون الدين يشكل أحد أهم ركائز القيم في النموذج الثقافي في

المجتمعـات العربيـة والإسلامية، يجعل لرجل الديـن وظيفة رمزية في حيـاة الأفراد، الذين غالباً مـا يظهرون له الود والاحتـرام، فضلاً عما يرسمون حوله من متخيل ذهني يتصل بشخصيته والتوقعات حولها على غـرار دماثة الخلق، والتحلي بالإيمان والصبـر والدعة، والزهد... الخ. وتـزداد حالة الاحتـرام وإظهار الطاعة كلما تميز رجـل الدين في علمه الديني وتبصره في عالم الاستنباط الفقهي، وفي عالم التفسير والتأويل للكتـاب الدينـي وللتراث. غير أن ممارسة الـدور انطلاقاً من المكانة لا يفترض جدلاً تحـول رجل الدين إلى رجل قيادي علـى النحو الميداني، أو أن تسـري علاقتـه القيادية على عموم المؤمنيـن بالدين، لاسيما اذا اقتصـر دوره على النطاق الروحـي دون الولوج إلـى الاجتماع السياسي والتصـدي لما يعصف به المجتمع مـن مشكلات، فضلاً عن جانب آخر يحدد المتحلقين حوله انطلاقاً من مساحة التشارك في حالة التمذهب الناشئة تاريخياً بين المسلمين والتي تحدد الأتباع بوصفهم منتمين إلى مذهب من المذاهب. فمساحة التشارك في الانتماء تشكل أحد العناصر الجاذبـة بين الأفراد ورموزهم الدينيـة دون أن يعني ذلك بروز التنافر مع المختلف في إطار الدين الواحد.

لهـذا السبب فإن المكانة الدينية للسيـد نصر الله تفترض وفق هذه الحال أن تشتد وجهة التماهي معه كقائد كلما اتجه مسار ممارسة الدور القيادي من العام إلى الخاص.

ذلـك أن الخاص محكـوم دومـاً بالتماهـي المشتـرك بيـن القائد

والمحازبين لتمثلهم أهدافـاً مشتركة ينزعون نحو تحقيقها، فضلاً عن الآليـة التنظيمية التي تحدد قواعد الطاعـة وإظهار الولاء. وبذلك تبرز حالـة التماهي في مراتبها القصوى، ثم تميل نحو الانحدار النسبي كلما اتسعـت دائرة امتـداد الفعل القيادي، أي على مستـوى الطائفة والوطن والأمة.

ففيما يتصل بالطائفـة الشيعية، لناحية تموقع القيادة الدينية فيها، فثمـة تراتبيـات في المكانـة تقتضي تمايزاً فـي الأدوار بمـا يتوافق مع المكانة، حيث يقف على رأسها المرجع الديني ثم يليه العلماء الآخرون. فالطاعة فـي موقع الإفتاء معقودة اللواء للمراجع الدينية، والسيد نصر الله لم يدع أنه بلغ مكانة المرجع الديني القادر على الاستنباط والإفتاء وإنما هو أحد وكلاء المرجع الديني آية الله العظمى السيد علي خامنئي، ما يعنـي أن المكانة والدور ستحددان تبعاً لحالـة التموقع في المراتبية الدينيـة، وهي ليست على أي حـال صنو مكانة ودور المرجع الديني لدى الطائفـة، حتى ولـو كانت مضاهية لها في مزايا عـدّة يفترض بالمرجع التحلي بها، كالورع، والعدالة، وحسن السيرة...الخ. لكنها لا تضاهيها في غزارة العلم والقدرة على استنباط الفتوى والاجتهاد بأحكام الدين.

أما مـن الناحية التنظيمية، فخصوصية الطائفـة الشيعية في لبنان محكومـة في البناء التنظيمي بثنائية حزبية راهنة يشكل حزب الله أحد طرفيهـا، ما يعني أن التماهي في الانتماء والولاء من الناحية التنظيمية يفترض التواءم مع هذه الثنائية.

أمــا في النطاق الإسلامــي العام، فالساحــة الإسلامية مفتوحة على توزع مرجعيات فقهية، وتشكيلات حزبية إسلامية متنوعة، وهي تفترض بحســب هذه الحال تماهيات مع أطر قيادية تتنــوع بحسب تنوع الانتماء سواء في نطاق التمذهب أو في نطاق الانتظام التشكلي لإحدى التنظيمات الإسلامية.

لذلك فإن السعي إلى فهم الدور القيادي العام الذي اضطلع به السيد نصــر اللّه لا يحيــل إلى المكانــة الدينية، أو هو غير منــوط بها وحدها، وإن كانــت تشكل إحدى العوامل الهامة في هــذا المضمار. ذلك أن هذه المكانــة وإن كانت تنفتح على الاختلاف والتنــوع، فإنها أيضاً تفتح على الاحترام بمعزل عن الطاعة التي سوف تبرز في مراتب متدرجة منحكمة إلــى خصوصيات المسلميــن في ممارسة التزاماتهــم الدينية، وبحسب اتجاهاتهم الفقهية والتنظيمية. لذلك فإن عمومية الدور القيادي ليست نابعــة من الموقع الفقهــي أو التنظيمي للسيد نصــر اللّه بل يتغذى هذا الــدور من الــدور الاجتماعــي والسياسي غيــر المنفصل عــن أطروحة الدين نفســه، والذي يستوجب التصدي للقضايــا المطروحة التي يرزح تحت وطأتها العالم والشعوب الإسلامية على وجه الخصوص، والتي هي ليســت محل خلاف بين المسلمين، بمعزل عن تصورات تحققها وآليات رفعها عن كاهل الأمة.

وعلى هذا النحو، فــإن الدور القيادي للسيد نصر اللّه ليس مطروحاً علــى أنه يمثل زعامــة دينية عامة، وإنما هي زعامــة قيادية انطلقت من

الفهـم الديني إلى الميـدان العام في الأمة، وصقلها فـي إطار القضايا العامة للمسلمين. فهذا الدور القيادي، هو دور استنهاضي عام، لا يدعو إلى النهوض فحسب، وإنما يحدد الآليات ويرسم النموذج، وينير الطريق أمـام تحققه وهو نموذج المقاومة من أجل تحرير الأرض واستعادة عزة وكرامة الأمة.

٢- القيم ومحددات الاستنهاض

أ-المقاومة ومنظومة القيم

تلعب الرمزيـة الدينية للقائد والمرحلة التاريخية التي يبرز خلالها، دوراً فـي تحديـد معالم الكاريزمـا وإبرازها إلى واجهـة الأحداث. غير أنها تبقى قاصرة عن الإحاطة بها مع إسقاط عوامل أخرى تشكل رافداً أساسياً في تجسدات هذا الدور، وهي العوامل التي تتصل بطبيعة الفعل المقاوم نفسه في تفصله مع القيم والمعايير السائدة. ذلك أنه وبحسب ماكس فيبـر، فإن الفكر البشري هو الذي يعطـي معنى للظاهرة بفضل العلاقـة بالقيم. كما أنه هو الذي يحدد في الوقت ذاته الأهمية المعطاة لبعض الظواهر، وانه عندما نعتبر أن نتائج الأحداث التاريخية هي نتائج مهمة يكون اعتبارنا على أساس العلاقة بقيمنا الثقافية.[١]

فالقيمة وفق بعض التعريفات، هي طريقة في الوجود أو في السلوك يعتـرف بهـا شخص أو جماعة مثـالاً يحتذى، وتجعل هـذه الطريقة من

(١) د. علي سالم، منهجيات في علم الاجتماع المعاصر، ممصدر سابق، ص ١١٢.

التصرفات أو مــن الأفراد الذين تنسب إليهم، أمراً مرغوباً فيه أو شأناً مقدراً خير تقدير[1]. إنها شيء يحظى بالتقدير والرغبة وهي تعبير عن الدوافع أو الحالة التي تشبه دافعاً.

سنسعــى وفق هــذه التعريفات إلــى تبيان الأهميــة المعطاة لظاهرة المقاربة كحــدث تاريخي انطلاقاً من القيم السائــدة على أن المقاومة بحــد ذاتهــا تشــكل تعبيــراً شديد الإرتبــاط بفئــات من القيــم الدينية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية، والتي تجسد بنماذج من الشجاعة، وإغاثة الملهوف، والإخلاص والحرية والعدالة.

وهي نماذج ترتبط بالنزوع الإنساني العام كالحرية والعدالة وبعضها مرتبط بالطبيعة الاجتماعية المتوارثة لدى الشعوب العربية والإسلامية على غرار الشجاعة والنجدة والكرم.

وهي لتضمنها نماذج فعل تعود إلى فئات متنوعة من القيم تغدو أكثر أهميــة مما لو تضمنت نموذج فعل يعــود إلى فئة واحدة من فئات القيم، إذ ثمة تراتبية في القيم لدى الشعوب التي تسعى إلى تفضيل بعضها في أولويــات ومراتب متدرجة من ناحية الأهمية. فبعضها من طبيعة روحية وبعضهــا الآخر مــن طبيعــة اجتماعية أو ماديــة أو فكريــة لكنها ليست علــى درجة واحدة من التراتب. فالقيم الجماليــة إذا اصطدمت بالقيم الأخلاقيــة والدينية في بعض جوانبها تتقدم القيــم الدينية والأخلاقية

(١) غي روشيه، مدخل إلى علم الاجتماع، مصدر سابق، ص ٨٨.

عليها، وكذلك الحال في القيم المادية في الكسب والمعاش والإنتاجية وغيرها.

وعلى هذا النحو، يغدو فعل المقاومة منطوياً أو متضمناً في نموذج يعود إلى أكثر من فئة من القيم المتواكبة في آن معاً، وبما لا يحوج إلى الاصطدام بمعايير تفاضلية بين الديني والأخلاقي والاجتماعي والإنساني، الأمر الذي يؤدي إلى اتساع وظائفها لدى الجماعات ولدى الأمة كوظيفتها في الإحساس بالانتماء، والتشارك في شدّ عرى الوشائجية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتوفير الشحنات والإنفعالات التي تجعلها ملهمة للأحكام ولإظهار الولاء والطاعة.

على هذه الحال، فالقيم كمرجعية للأحكام، وكمثال يحتذى وغايات قصوى يطمح إليها أصحابها، يصبح معها الفعل المقاوم معياراً وتجسيداً واقعياً للجانب المعنوي الذي تشكله القيم. فالمعايير هي تجسدات واقعية في حين أن القيم هي مرجعية معنوية. فإكرام الضيف، ومساعدة الضعيف، وإغاثة الملهوف هي تجسدات عملية لقيمة اجتماعية هي الكرم وليست هي الكرم بحد ذاته. ومن هنا تأتي النماذج التي تقدمها المقاومة على أنها فعل سلوكي في الشجاعة والصبر والتحمل ورفع الظلم ومساعدة المظلوم وفي الإقدام والجرأة، ونيل العزة والكرامة والحرية، يحاكي القيم ويتوازن معها، وبذلك تصبح المقاومة النموذج المحدد للسلوك الرمزي والمرجعي في مجاراته لمنظومة القيم في النظام الاجتماعي السائد.

كذلك يرتبط الفعل المقاوم في أحد جوانبه بمجاراته لقيمة إنسانية عاليـة هي قيمة الإيثار، وهي قيمة رغـم ارتدائها الطابع الإنساني العام إلا إنهـا تحظى بخصوصية بـارزة في المجتمعات العربيـة والإسلامية لارتباطهـا بالواقع الاجتماعـي والتاريخي من جهـة، وارتباطها بالدين مـن جهة أخرى. ولذلك فالإيثـار يستند في هذه المجتمعات على أساس اجتماعي وديني.

ولتبيـان هذه الخصوصية، نجد أن المجتمعات التقليدية وبمعزل عن الدين، مارست هذا النوع في محاكاة هذه القيمة. ففي مجتمعات الصيد البدائيـة، وكذلك المجتمعات الزراعية حيـث الندرة في الرزق وأسباب العيش أدت إلى وجود الحالة التضامنية والتعاضدية بين الأفراد.

ففـي هـذه المجتمعات تسـود، من ناحيـة القرابة، العائلـة المركبة والموسعـة وتجمعـات القبيلة والقـرى التي يعرف فيهـا الأفراد بعضهم بعضاً وتشتـد فيها الأعراف والتقاليد بينما تضعـف القوانين المكتوبة، وفيهـا يؤثر الفرد أفراد عائلتـه أو قبيلته أو أبنـاء القرية على نفسه في حالات العوز والشدّة وندرة الرزق. هي مجتمعات تكاملية وتضامنية حيث يعمل جميـع الأبناء معاً ويعمـل الفرد للجميع. ولكنها تقـوم على الإيثار حيـن يعطي الفرد في بعض الأحيان أكثر مما يأخذ، إذ قد يتكافل أفراد أسرة ما في العمل الزراعي ولكن الإنتاج حين يكون غير وفير تمتد إليهم يد أخـرى للمساعدة في إطار من التبادلية حيـث يمكن أن تكون العائلة الموفـورة الإنتـاج في زمن ما، محتاجة إلى يد العـون. فالتبادل هو احد

الأسباب التي تؤدي إلى رسـوخ العرف والقيمة في تلك المجتمعات التي لم تسيطر بعد على الطبيعة. في المجتمعات الغربية الحديثة حيث تغدو مؤسسات الدولة كبديل تضامني عن الأفراد ليس ثمة حاجة إلى امتداح الفعل الذي يحاكي قيمة الإيثار.

لقد حلـت الأسرة النواتية التي تقوم على الـزوج والزوجة والأولاد أو بدونهما محل العائلة الموسعة، وغدا المجتمع أفراداً في مواجهة بعضهم بعضـاً في التحصيل والكسـب. في عالم الربح والمـال، ثمة عقل عملي يتحكـم بالأشيـاء، إذ ليس ثمة منطـق في أن أعطي المـال الذي أكسبه بالتعـب لفرد عاجز لا يقوم هو بهذا العمل الذي ينبغي له أن يقوم به ولو لـم يوفق إليه، أو حتى في أبسط الحـال ثمة مؤسسات تقوم بدور رعائي للعاطليـن عن العمل تمول مـن الضرائب المفروضـة. وليس ثمة منطق فـي مساعدة الآباء لأبنائهم الذيـن يؤثرونهم على أنفسهم وهم أطفال، ولكـن بعد بلوغ السن القانونية عليهم بتدبـر أنفسهم. وليس على الأبناء مساعدة الآباء العاجزين طالما هناك مؤسسات رعائية تحتضنهم حتى مماتهم . وليس من العقل أن أكون مضيافاً أقدم نقودي في منزلي أو في المطعم أثناء دعوة لأصدقائي ومن جمعتني بهم الصدفة. لقد حل العقل وحسـاب الربـح والخسارة والمنفعة في تفاصيل الحيـاة اليومية ما أدى إلـى ضمور قيمة الإيثار من الناحية الموضوعية لكونها تخالف المنطق. مـع ذلك، نجـد أن الكثير من الأعمال التي تحاكي هـذه القيمة، مقترنة بأصحـاب الشهرة وعالم النجـوم الكبار أثناء الإفصـاح عن برامجهم

فـي مساعـدة الأطفال المرضـى، كمرض السيدا والسرطـان وغيرهما بعدمـا تعب هـؤلاء في الجني والربح وعالم الشهـرة، إذ ليس من نشاط يحوجهـم إلى الشعـور بإنسانيتهم أكثر من ذلـك التعاطف الإنساني مع العاجزيـن والمعوزين وذوي الحاجات الخاصـة. وهو عالم منفصل عن القيـم الدينية المسيحية فـي المحبة والإيثار والتي غـدت أسيرة أقوال الرهبـان والقديسين فـي كنائسهم وأعمـال القديسة تريـزا في حسّها الإنساني الرائع.

أمـا فـي المجتمعات العربيـة والإسلامية، فإن قيمـة الإيثار ما تزال تختـزن معانـي محمَّلة بالكثير من مـوارد القبـول والاستحسان، لكونها قيمة متناسلة في تاريخ هذه المجتمعات وواقعها المعاش غير المنفصل عن ماضيها. ذلك أن المضي في مشروعها الحداثي لا يقوم على أساس القطيعـة مـع الماضي كما فـي البلـدان الأوروبية. فالبنيـة الاجتماعية العربيـة والإسلاميـة مـا تـزال تحافظ علـى تماسك نموذجهـا القائم علـى القرابة وعلـى الوظيفة الوشائجيـة والتضامنية للعائلـة الموسعة. كمـا أن هذه المجتمعات وإن دخلت مرحلـة التصنيع، ولكنها لم تستطع تحويـل الأفراد إلى ذوات فردية منفصلة. فالعائلة ما زالت تشكل وحدة اجتماعيـة اقتصاديـة، كما تتصل اتصـالاً وثيقاً بالمؤسسـة الدينية[١] وبالقيم الدينية، ومنها التي تحث على الإيثار بين ذوي القربي والأرحام

(١) حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٩٨، ص ٢١٩.

فـي مد يـد العـون والمساعدة ولـو على حســاب الذات، بـل والاهتمام بالجماعــة وبأمور المسلمين والمستضعفين. وهي تعاليم تضطلع بأدوار شتــى بينها توطيد عرى اللحمة والوشائجية لدى الجماعة، والدعوة نحو التسامــي بالفرد نحو الكمال الإنساني الذي يتجرد عن الذات فضلاً عن ارتباطها بالعود والنفع الأخروي.

وبذلــك يحمل الفعل المقــاوم بعداً قيمياً يتجســد بقيمة الإيثار حيث لا يعــود هذا الفعل على من يقــوم بالعمل نفسه، وإنما يعود بالفائدة على الجماعــة لبنانية كانــت أو فلسطينية أو عمــوم المسلمين، لكون معضلة الصراع مع إسرائيل تبقى إشكالية مطروحة على الوعي الإسلامي ينبغي العمــل لرفعها ومعالجتها. ولما كان من غيــر المتيسر لجميع المسلمين الانضواء في العمل المقاوم بسبب الظروف الموضوعية المحيطة بالفرد، كان مــن الطبيعــي أن يختزن هذا العمــل بعداً عميقاً فــي محاكاة قيمة الإيثار ليس في مجال تحمل الجهد والعناء والمصاعب الذي يستوجبها، والــذي يخرج عن التضحية بهذا الجهد والعناء إلى حد التضحية بالمال والنفــس وهــو ما لا يتحمله عموم الأفــراد، إذ لا يمكن بحسب المصلحة الشخصية، وبحسب عامل الخــوف والإحساس بالضعف، ونزعة الخلود الفطرية أن يقدم الفرد على التضحية بنفسه من أجل الجماعة أو الأمة التي ينتمي إليها.

فالاستشهــاد والتضحية عمل ممدوح لا بحســب ما يحمله لدى أفراد الأمة من قيم دينية وحســب، وإنما الفرادة والتميز اللذين يجب التحلي

بهمـا للاقدام على هذا العمل، سيما أن المقاوم ليس جندياً في مؤسسة عسكريـة لكي يدفع نحو القتال على النحو الإكراهي، وإلا فسوف يخضع للمساءلة القانونية والجزائية.

مـع ذلك، فـإن الجندي حين يقدم نفسه فـي المعركة يحاط بالكثير من إسقـاط عوامل الاحتـرام المتمثلـة بالطقوس الرمزيـة لرفاقه في السلاح، من معزوفة نشيد الموت، إلى المقابر الخاصة التي تخلد ذكرى الشهداء بوصفهم أبطالاً آثروا شعبهم وأمتهم على أنفسهم، فكيف الحال حيـن يكون الفعل المقاوم عملاً يرتكز علـى الاختيار والمبادرة الفردية للانسان الفرد نفسه؟

فالشجاعـة والإيثـار والتضحيـة تنتمي إلـى فئة القيـم السائدة في المجتمـع العربـي والإسلامي، وهي مستمـدة من تواصلهـا مع الجانب التاريخـي لهذه المجتمعات في تحولها من مجتمع القبيلة إلى الدولة في العصـور الإسلاميـة، ومن جملة التحديات التي واجهتهـا فيما بعد إزاء عهود الاستعمار ومقاومة المشروع الصهيوني. وهي لا تزال قيمة سائدة إزاء استمرار التحدي الصهيوني للاجتماع الأهلي والمدني بمقابل بدائل أخـرى تقوم علـى أساس المفاوضـة لاسترجاع الحقـوق وهي مطروحة اليوم من قبل القادة العرب.

أما الفعل المقاوم، فهو يشكل أحد النماذج السلوكية المعيارية لكونه فعـلاً يحاكي هذه القيمة ويرمـز إليها، وهو يشكل في أحـد أبعاده فعلاً يقوم على القوة، ولكن دون أن تكون القوة وحدها تمثل الشجاعة بعينها.

فقـد تستخدم أسباب القوة في عصر التصنيـع والتكنولوجيا وتستخدم علـى أنها فعـل يقوم على القـوة دون الحاجة إلى عامـل الشجاعة. ففي عالـم استخدام السيـف والمبـارزة، أو المواجهة الحاليـة في الحروب حيـث يشتبك فيها الجنود، فـإن الشجاعة تبقى مطلوبـة على أية حال، حيث تقترن الشجاعة بالقوة وترفدها.

في حين أن الشجاعة تفتقد إلى القيمة المطلوبة لدى الجندي الـذي يقود دبابة أو طائرة مـزودة بأحدث ما أنتجته التكنولوجيا الحديثة، فهو لا يتعامل مع أفـراد وجهاً لوجه بقدر ما يتعامل مع أهداف ليس بينه وبينها حالة تفاعلية يمكن أن تُختبر فيها قدرته على الصمود في الميدان، إذ يكفي أن يدخل الهدف دائرة التحديد المبرمجة حتى يصبح الهدف في عداد لائحة الإلغاء الوجودي بعدما يقضي عليه صاروخ نـازل من أعالي السماء أو قـادم من أقاصي الأرض.

وهكـذا نجد أنـه كلما ازداد تطـور التكنولوجيا الرقميـة، كلما مالت قيمة الشجاعة نحو التضاؤل، وتضاءل معها الإحساس الإنساني بالخوف والحذر اللذين يتسوجبان استحضار الصبر والعزم والإقدام للثبات في المعركة، قبل وقوعها وأثناءها وبعدها.

في حين أن قيمة الشجاعة جراء التصدي للمشروع الصهيوني تبقى مطلوبة في ظل غياب التوازن التكنولوجي.

ولذلك تنظر هذه الشعوب إلى العمل المقاوم في لبنان على أنه نموذج سلوكي يحاكي قيمة الشجاعة.

فهو يقوم على استخدام القوة ولكنه لا بد له من الاقتران بالشجاعة، لكونه يقوم أساساً على الاشتباك مع العدو في مواقعه الحصينة والمجهزة بوسائل الرصد والإنذار والعتاد، في اندفاعة يقوم بها المقاومون نحو هذه المواقع حيث تتداخل فيها كل المؤثرات التي يمكن أن تنال من المشاعر الانفعالية للانسان كأصوات القذائف، وألسنة اللهب وغبار المعركة وأنين الجرحى، ومشاهد القتل، خلافاً لقائدة الطائرة الحربية غير المتصل بشكل مباشر بالهدف إلا فيما يراه على الشاشة المحددة لأهدافه أمامه.

فالميدان إذاً هو ميدان صبر وأناة وإقدام، وهو يستوجب بلا شك، رجالات يحملون هذه المواصفات. وهو ما يجعلهم ذوي خصوصية يُنظر إليها على أنها محل احترام وتقدير. ذلك أنه ليس بمستطاع كل إنسان التحلي بمثلها، إذ شتان ما بين قيمة الشجاعة ذات الفعل الذي يحاكي هذه القيمة وبين الشجاعة نفسها. فكم من الأفراد ينظرون إلى الرجل الكريم والمعطاء نظرة تقدير واحترام ولكنهم لا يقومون بالفعل نفسه، علماً أن الكرم هو قيمة اجتماعية مطلوبة، وقد يتعارض الأمر مع مصلحتهم في الإنفاق أو في عدم امتلاك المال أصلاً أو بسبب ظروف موضوعية تحول دون هذا الأمر مع ذلك يبقى فعل الكرم ممدوحاً من قبل الكثيرين. كذلك الأمر في الفعل المقاوم. قد يتعارض الموقف مع مصلحة الفرد في عدم تعريض حياته للخطر والأذية، أو ثمة ظروف موضوعية تحول دون مشاركته في هذا الفعل، كتعرضه للمنع أو الملاحقة

من قبل نظامه أو أنه في الأصل لا يحترف عمل القوة جرّاء نقص في التدريب مع أنه يمتلك القابلية للعمل الشجاع.

على هذا النحو يبقى الفعل المقاوم عملاً معيارياً لقيمة الإيثار والشجاعة والتضحية وهي منظومة قيم لا تزال تنظر إليها الشعوب العربية الإسلامية نظرة قيمية انطلاقاً من تاريخها وواقعها.

ووفق هذه التحديدات يبرز الدور القيادي الكاريزمي للسيد نصر اللّه بوصفه قائداً لحركة تختزن وتحاكي هذه المنظومة من القيم والمعايير لدى الأمة جاعلة منه مثالاً يحتذى في تقديم الطاعة والاحترام.

على أنه ينبغي التنبه للمراتبية بين الطاعة والاحترام في العلاقة الجدلية بين القائد الكاريزمي والأتباع أو المناصرين، على أنها ليست على درجة من التساوي الذي يجعل التماهي مع القائد على درجة واحدة، ولكن من دون أن يفقد رمزيته الكارزمية، ذلك أن تصرف الفرد في النظام الاجتماعي يخضع للنموذج الثقافي السائد الذي يكفل الانسجام والتكافل والتوازن .

القيم هي أحد عناصر النموذج الثقافي، غير أن هذه القيم لا تمارس دوراً قسرياً على الأفراد، بل إن شخصية وسلوك الأفراد تخضع لعناصر التجاذب والتناقض بين دور الفرد ومصلحته، وتناقض المصلحة مع القيم، لا سيما وأن الفرد محكوم بحرية التصرف وتوافق التصرف مع الأهداف وهو ما يعمد إليه تالكوت بارسونز في فهم المجتمع الرأسمالي الغربي.[1]

(١) د. علي سالم، منهجيات في علم الاجتماع المعاصر، مصدر سابق، ص ٢٠٦.

قد يصح هذا الوصف الذي يسعى إليه بارسونز على المجتمع الغربي باعتبار أن القيم لا تلعب دوراً جبرياً في توجيه السلوك في تعارضها مع مصلحة الأفراد، خصوصاً في المجتمع الرأسمالي الصناعي الاستهلاكي، حيث النزوع نحو الكسب والربح والشهرة والنفوذ عندما يقف الفرد بمواجهة أفراد آخرين داخل المجتمع الواحد. ولكن في القضية المطروحة على بساط المقاربة هي تجلي دور القيم والمعايير في إطار المصلحة الجماعية وليست الفردية. فالحق والعدل قيمتان مطلوبتان على النحو الفردي والجماعي والنموذج السلوكي في الفعل المقاوم يتجلى بجانبه الجماعي حيث لا يطرح النموذج السلوكي في محاكاتهما في إطار المغالبة الفردية مع الحاكم وإنما بين أمة وأمة أخرى، أمة تؤمن بالوصول إلى مطلب الحق في استعادة الأرض. فمطلب الحق سابق على استعمال القوة الذي يغدو سلوكاً عادلاً في استعادة الحق ونموذجاً يتجلى في خطاب القائد الكاريزمي بعدما غاب عن سلوك القادة العرب ومن دون أن يفلح النموذج المستبدل في استعادة الحق على أساس الاستسلام في استبدال المعايير في النظر إلى المصلحة الجماعية للأمة.

لكن ثمة إشكالية تدور حول جدلية العلاقة بين القائد والأفراد والأمة، على أنه إذا كان المقاومون في دورهم المتماهي مع القائد هم الذين يقدمون النماذج السلوكية التي تحاكي القيم، فلماذا تقدّم حالة الاحترام على أنها متمايزة بين القائد والمقاومين، ذلك أن الفعل المقاوم لهؤلاء

يحظـى بكل التقدير والاحترام وينسحـب عليهم كأفراد ولكن لم يصبح هؤلاء على نفس الدرجة من الكاريزما بنظر أفراد الأمة؟

وقـد يفهـم هـذا الأمـر فـي حـال التماهـي بيـن القائـد وأتباعـه الإيديولوجييـن أو المحازبيـن أو مـن يشاركونه في الانتمـاء والأهداف بشـكلٍ مباشر، ويجمعهم معه تاريخ مشتـرك من العمل الدؤوب والجهد المريـر في سبيـل تحقيق الأهداف، وكونه يشكل رأسـ الهرم التنظيمي الذي يفترض تقديم الولاء والطاعة، فضلاً عـن دوره في رسم الآليات السلوكية المحاكيـة للقيم وخاصة قيم الجماعة المتشاركة معه في بيئة ثقافيـة خاصة، إلى جانب أسباب أخرى سوف تكشف عنها المقاربة في سطور لاحقة.

أما التماهي العام الذي يبرز لدى أفراد الأمة للقائد نفسه أي السيد حسن نصر الله، فقد يدور الاعتقاد بأن البيئة الثقافية في العالم العربي الإسلامي التي تميل بطبعها نحو إظهار الاحترام للقائد البطل أو الرجل التاريخـي ولكونها بيئة بطركية تظهر فيها السلطة الأبوية المتحكمة إلى قيمها الخاصة فـي تقديم الطاعة الوالدية، فهـو الراعي وهو المخلص والمستبـد الذي يعرف مصلحة أبنائه أكثر مما يعرفون هم مصلحتهم، ولكـن الأمر يغدو غير ذلك حين الولوج إلى التجربة الذاتية للسيد نصر الله والتي تحمل أبعاداً متشاكلة ومتمايزة في آن معاً.

فحالـة التشـاكل هي في حالـة التماهي بيـن الدور القيـادي والدور المقـاوم نفسـه الذي يجسد سلـوكات ونماذج عملية فـي محاكاة القيم

والتـي تتجسد عملياً فـي ميادين شتى من كونه تدرَّج في العمل الجهادي قبل وصوله إلى سدّة القيادة، وهي من الموجبات الخاصة بعمل المقاومة الإسلامية في لبنان، وهو ليس موضع شك لدى المنضوين في المقاومة، وقد أتاحت الميديا الإعلامية تقديمه العفوي على شاشة تلفزيون المنار فـي أحد الخطوط القتالية مرتدياً زيـه العسكري وحاملاً بندقيته ويبدو على ملامحه العمل المضني كسائر أقرانه دون أن تغادره ابتسامة تفصح عن حالة الارتياح لوجوده بين المقاومين. وقد استمر هذا التجسيد بعد تبوئـه سـدّة القيادة ولكـن بما ينسجم مـع الدور الـذي يقتضيه الموقع القيـادي مـن مشاركة فـي التخطيط ورسـم الاستراتيجيـات والتوجيه والإشراف، ولكن من دون أن يلغي الاستمرار في تجسيد الفعل المقاوم. وقد برز هـذا النموذج السلوكي عبر أثير الفضائيـات إبان عدوان تموز ٢٠٠٦ في المتابعة الميدانية للعمليات الدائرة على خطوط القتال وبينها أمـر العملية القتالية التي استهدفت بارجة إسرائيلية عملاقة في عرض البحـر، وكذلك في بروزه في احتفال النصر في شهر أيلول معلناً تحدي العدو الإسرائيلي الذي دأب على إعلان استهدافه بعدما اعتلى المنصة وسـط هدير الطائرات الحربية التي لـم تغادر سماء الضاحية الجنوبية آنذاك.

ورغم أن مـن مقتضيات فعل المقاومة والقيادة على وجه الخصوص التـزام جانب الحذر وعدم تقديم الفـرد أو القائد لقمة سائغة للعدو ما يمكنـه من إحـراز النصر، فقد أتاح بروز القائد أمـام الأمة على الأثير

وهو يعلن استعداده للاستشهاد على أنه صنو المقاومين في دورهم الاستشهادي، وقائد لا يقيم في قصره مخلداً إلى الدعة والراحة وعلى غرار رؤساء الأمم.

ب- الذاكرة الجمعية

الذاكرة الجمعية هي عامل من عوامل الانشداد نحو القيادة، وبالتالي نحو الفعل المقاوم. أهمية الذاكرة الجمعية أنها تختزن الكثير من ذكريات الماضي ووقائع التاريخ في حياة الشعوب، ولكنها ليست أحداثاً جامدة كمدونات التاريخ وإنما تبقى حية في الوجدان والعقل، يستدعيانها في المهمات وفي الأحداث المفصلية للاستضاءة بها والاسترشاد بهديها فضلاً عن كونها إحدى أساسيات التضامن واللحمة والوشائجية بين الجماعات أو الشعوب كما تزخر به أحداثها ورموزها وشخصياتها من معانٍ مثقلة بالكثير من الانجازات والدلالات التي تعبر عن القدرة على معالجة إشكالات الواقع من رجالات رسمت حولها هالة كبيرة من القداسة والشرف والرفعة والحكمة من قبل المؤمنين بها.

غير أن عملية الاستحضار من الذاكرة الجمعية ليست على درجة واحدة حيث تتراوح بين الضعف والشدة. فتارة يقتصر هذا الاستحضار على الإحساس بالشعور النفسي الذي يمنح الطمأنينة حين العودة إليها تحت وطأة الأحداث المثقلة بإرباكات الواقع، بعدما يسود التذمر والضجر وانعدام أفق الحلول الممكنة. والقضية الصراعية أدت بلا

شك إلى حال التذمر لدى الشعوب العربية والإسلامية ثم لينفتح هذا الاستحضار على عقد المقارنات بين مثالية الماضي وإشكالات الحاضر وتصورات المستقبل. وقد تلجأ بعض الجماعات إلى عقد لواء من المصالحة بين الذاكرة الجمعية والحاضر عن طريق عقلنة الواقع بإسناده إلى مجموعة من التبريرات التي تبيح القبض على زمام الأمور في إطار الظروف والشروط الموضوعية، دون إلغاء هذه الذاكرة وإنما تستبقيها أسيرة وجودها التاريخي. وتلك هي حال النظم السياسية التي تعيش حال الانكفاء والضعف والخضوع وحال انعدام التوازن. تلك الحالة ليست سهلة المنال إنما تحتاج إلى الكثير من الجهد والإقناع واستخدام أجهزة السلطة في إحداث ونقل تبريرات الواقع إلى الوعي الجماعي دون المساس بالذاكرة الجمعية للشعوب، بل يجري التمسك والاعتداد بها وتأكيد الانتماء إليها، طالما بقيت ترزح في دائرة التاريخ لانتفاء الظروف الموضوعية التي تعين على استحضارها إلى عالم الواقع، أو يجري الأمر من خلال إخضاعها لمجموعة من التأويلات وجعلها منفتحة على تعدد الأفهام والرؤى حولها لناحية حملها على الواقع.

في حين أن إحدى درجات هذا الاستحضار تبلغ درجة من الشدّة في تأكيد الذاكرة الجمعية، فيجري استدعاؤها لإعادة إنتاجها في الواقع بكل ما يضج به من تفاصيل تتدرج في الأمور اليومية والحياة الدنيوية والأخروية للجماعات لتصل إلى قمة الهرم السياسي وتلك هي حال الجماعات الإسلامية التي باتت تسمى بالحركات الأصولية.

على هذا النحو تقدم الشعوب العربية والإسلامية في تشكيلاتها الأهلية وانتماءاتها الحزبية ومؤسساتها ونظمها السياسية، الكثير من الأمثلة لناحية تموضع الذاكرة الجمعية جراء ما تعصف به هذه المجتمعات من حالات الفقر والسيطرة والضعف والنزوع نحو التنمية والمشاركة. ولعل مشكلة الصراع مع الكيان الصهيوني هي أحد أهم عوامل هذا الاستحضار لانفتاحها على مختلف المكونات الشعبية.

ذلك أن مخزون الذاكرة الجمعية يستند إلى الكثير من العناصر المتوالفة والمتراكمة على مدى أجيال، فهي ذاكرة تختزن الكثير من القدرة على الحضور حيث لا تمتد إلى أحداث جرت في قرون خلت، وإنما تشكلت من ماضٍ قريب متصل بالحاضر، ولأنها حين تشكلت حملت معها الكثير من الإخفاقات المشفوعة بالمآسي والحزن، والإحساس بالهزيمة وبالقليل من النجاحات المحدودة في بعض مفاصل الصراع، ولكنها بقيت تنتظر الانجاز التاريخي الكامل وهو ما قامت به المقاومة في لبنان.

ج- الفعل المقاوم بين المبادرة والمغامرة:

المبادرة هي إحدى السمات الهامة التي لا بد للقيادة من التحلي بها لاقترانها بالتحفز والإقدام لتحقيق الغايات، وبدونها يتحول القادة إلى قادة رأي ومنظرين أو فلاسفة ينشدون فهم علل الوجود في بداهتها وعمقها ومن دون أن ينقض ذلك دورهم التغييري. فمثالاً لا حصراً لعب

مفكرو عصر الأنوار في القرن التاسع عشر دوراً في إحداث التغيير الذي شهدتـه القـارة الأوروبية بعدما سـرت أفكارهم حول الحريـة والعدالة والمسـاواة وعلى امتداد عقـود من الزمن، ووجدت لهـا مكاناً دافئاً في عقـول المستنيرين الطامحين إلى استبدال الواقع المتردي بفعل سيادة السلطـات المطلقة، وانعدام الأمن والحريـة والعدالة. إن مبادرة هؤلاء المفكرين تجلت عندما انبـروا إلى إعمال الفكر والنظر من اجل العبور من الواقع المتردي إلى واقع أفضل من خلال بلورة ممكنات التغيير.

وقد لا يحتاج التغييـر إلى فلاسفة ومنظرين، وإنما إلى مبادرين من نوع آخـر ممن تشكلت لديهم قناعات تغييريـة زاوجت بينها وبين الفعل التغييـري على غـرار ارنستو تشي غيفارا وفيـدل كاسترو وأحمد بن بلا وغيرهم من القادة التاريخيين الذين أفرد التاريخ لهم صفحات بيضاء خلدت أدوارهم وجعلت منهم مثالاً يحتذى لدى شعوبهم.

وفي المرحلـة الراهنة المتصلة بالصراع مـع إسرائيل يتجلى الدور القيـادي للسيد حسن نصر الله باستناده إلـى خيار المقاومة داعياً إلى توسلهـا فـي حسم مسألـة الصراع الـذي مضى عليه عقـود من الزمن فيمـا المشـروع الصهيونـي يتقدم على مـا عداه من مشاريـع لحل هذه المعضلة.

فالدعوة إلـى المقاومة هي بحد ذاتها مبـادرة، جعلت من أصحابها دعاة تغييريين وقادة تتحلق حولهم الجماهير.

إنّ المبـادرة تكـون شديـدة الحاجة والإلحـاح حين يسـود حال من

المأساويــة والضياع، وحين انعدام أفق الحلول، وتجمد الوعي التغييري، أو بفعل وجود الوعي التغييري كاستعداد كامن في النفوس ولكن من دون خروجــه إلى حيــز الواقع بفعل القهر والتسلـط الداخلي والخارجي على الشعوب.

وقد يصح هذا الوصف في محايثته وتزامنه مع الواقع الذي يبرز فيه الدور القيادي المقاوم للسيد نصر اللّه إن لناحية الإخفاقات في حروب الأنظمــة العربية فــي صراعها مع إسرائيــل أو لناحيــة الانحدارات في القضيــة الصراعية التي مالت منذ كامب ديفيــد، ثم مؤتمرات التسوية المزعومة منــذ مدريد وأوسلو، إلى تنحية مسألــة الصراع والاستعاضة عنها بمفاوضات السلام، فضلاً عن ضغط الأنظمة العربية على شعوبها المتحفزة نحــو استعادة الأرض والحقوق المشروعة بالارتكاز على خيار المقاومــة، بمقابل مبررات تستنــد إليها تلك الأنظمــة قوامها الظروف الموضوعية وانعدام حال التوازن مع القوة الأسطورية لإسرائيل ومساندة الغــرب لها وبأن الأمور بخواتيمها طالما أن تلــك الخواتيم هي استعادة الأرض.

وعلــى هــذا النحو، تصبح المبــادرة في الفعل المقــاوم مغامرة غير محسوبــة النتائج بنظر الحكام لأن منطلقاتهــا تتجافى مع منطق العقل ومقتضياته في تعيين الآليات والوسائل للوصول إلى الأهداف.

ورغم أن دحض فكــرة المبادرة برزت أولى ملامحه مع كامب ديفيد بمشاريــع التسويــة في مدريــد ووادي عربــة، إلا أن أصبحــت بعد ذاك

مغامرة فــي إطار الرد على الفعل الإجرائــي للمقاومة في لبنان بخطف جنديــن إسرائيليين مــن أجل مبادلتهما بأســرى لبنانيين في السجون الإسرائيلية، ولذلك دعت السيد نصر الله إلى تحمل النتائج.

ترى إذا كانت المبادرة مغامرة تقف بمواجهة عقلنة القرار السياسي وتوظيــف العقل العملــي والمعياري في قضية تدخل فــي إطار شبكة من القضايا المعقــدة في الصراع مع إسرائيل، فلماذا حظي الفعل المقاوم فــي أحد حلقاته المتصلــة بحرب تموز ٢٠٠٦ بهــذا التأييد من الشعوب العربية والإسلامية دون بعض حكامها؟ تكمن الإجابة في أن هذا التأييد والالتفاف لا يحيل إلى حب المغامرة غير محسوبة النتائج لهذه الشعوب، بقــدر ما يحيــل إلى انفتاحهــا على الأبعــاد الوظيفية للعقل فــي جوانبه النظريــة والعمليــة في آن معــاً. ذلــك أن وظيفة العقل النظــري التطلع الدائم نحــو الحقيقة التي تحيــط بعالم الإنسان وبينهــا حقيقة الوجود الصهيونــي المعادي، فيما ترتبــط الجوانب العمليــة بالآليات والوسائل التي منهــا الفعل المقاوم الذي يقف على دفتي الترجيح بين المبادرة أو الاستسلام.

وأمــا من ناحية قيادة المقاومة، فإن الخطاب الموازي للفعل المقاوم لم يخل يوماً من تقديم مبررات للعقل الجمعي على أن المقاومة لا تعني المغامرة وإنما تقترن بالعقل حيث نجد عناصر هذا الخطاب تقدم بإزاء أعمــال العدوان اليومــي لإسرائيل وأمريكا فــي فلسطين والعراق تجربة نجاح المقاومة في تحرير الأرض في جنوب لبنان، وعناصر أخرى تتصل

بالتخطيط في إدارة المعركة، وبأن المقاومة تمتلك كل أسباب القوة من سلاح ردعـي وبنية قتالية متماسكة وهي عناصـر تحمل قدراً كبيراً من الأهمية لتسويغ المبادرة. وحتى ولو كانت النتائج متواضعة بنظر بعضهم، فإن المقاومة تكون متصلة بحلقات أخرى في البناء الاستراتيجي لخوض المعركة المصيرية التي تستوجب المبادرات العربية والإسلامية بعد أن تكون المقاومة قدمت النموذج في هذا الميدان.

قد يصح هذا الفهم في اعتباره أحد عناصر التأييد والتفاف الشعوب والحكام لارتباط العقل التبريري بمصالح دوام السلطة فضلاً عن تعوده على مصـادرة وظيفة العقل الجمعي لهذه الشعوب بحصره بالحاكم في عقله الأبوي الذي لا يكف عن اعتبار الأفراد أطفالاً ومراهقين قاصرين عن مصالحهم الخاصة فكيف بمصالح الشعوب؟ ومن هنا كانت ممارسة دوره الأبـوي على أن المبادرين في الفعـل المقاوم ليسوا سوى مغامرين لا يستوجـب الأمر عودتهم إلى أحضان الأبوة على غرار الأطفال وحسب وإنما يجب أن يتحملوا تبعات أعمالهم عندما يضيق الأب ذرعاً بممارسة أبوته ليست في السلطة وإنما في مصادرة العقل حتى ولو كان هذا العقل عمومياً بالفطرة ويتوزع على عموم بني البشر.

الفصل الثالث

القيادة والخطاب المقاوم

١- مفهوم الخطاب

قبل البدء في عملية المقاربة ولفهم طبيعة الخطاب في الفعل المقاوم لا بد لنا من تحديد مفهوم الخطاب السياسي واستعمالاته دفعاً للالتباسات التي يمكن أن تحصل بسبب الاستعمالات المتعددة لهذا المفهوم.

يعدُّ الخطاب السياسي، من الناحية العمومية، منظومة فكرية تحوي الكثير من المفاهيم والدلالات النظرية التي تعين الفرد على خبرة أحد جوانب الواقع الاجتماعي، وتسعى إلى تقديم مجموعة من التصورات حول هذا الواقع أو إشكالاته المتباينة التي تم إنتاجها في إحدى الفترات التاريخية. إن تناولنا لمفهوم الخطاب السياسي لا يعني أننا سوف ننطلق من هذا المفهوم الذي أوردنا، ذلك أن مفهوم الخطاب باعتباره مصطلحاً شاملاً يحتوي على مجموعة من العناصر التي تعين على فهم مجموعة من الأشكال والإدراكات النظرية، قد لا نجده متطابقاً مع ما نسعى إليه في المقاربة.

ومـن هنا سوف تتم مقاربة هذا الخطـاب من زوايا ثلاث هي الهوية التـي تجعلنـا نقف علـى الفروقـات الأساسيـة المطروحة علـى الوعي الإيديولوجي وتبيـان موقع الخطاب المقاوم منها، ثم حقل السلطة التي يـدور حولهـا هذا الخطـاب، وصولاً إلـى وظيفته في التواصـل الداخلي والخارجي وهـي وظيفة أساسية تلعب دوراً هاماً فـي بلورة هذا الانتماء وتعضيد اللحمة من أجل الوصول إلى السلطة.

إن اختيـار هـذه الزوايا الثلاث فـي الخطاب تجد لها تبريـراً لدينا لكونها تشكل معاً العوامل التي يدور حولها التمحور والانقسام في الوعي الأيديولوجـي فـي العالم العربـي والإسلامي. وهي بحد ذاتهـا إشكالية مطروحة على الخطاب المقاوم عما إذا كان خطاباً يضيف عاملاً جديداً إلى عوامل الانقسام في الوعي الأيديولوجي، لكونه خطاباً يحمل منطلقات إسلامية، ومفتوحاً على تعدد الفهم بتعدد الحركات الإسلامية وتنوعها، ويقف بمواجهة خطاب يوصف بأنه خطاب علماني ارتكز عليه الكثير من الحركات والأحزاب القوميـة والاشتراكية التي سادت في العالم العربي والإسلامي منـذ عهود الاستعمار إلى يومنا هـذا. غير أن هذا الخطاب تميز بكونـه استطاع القفز فـوق عوامل الانقسـام، لتأسسه على عوامل استنهاضية تتأطر خلالها كل نتاجات الوعي بمختلف تنوعاتها.

مـع ذلك ينطلـق السؤال حـول كيفية تمفصلـه مع الهويـة والانتماء والسلطـة، ووظيفته في التواصل لتبيان دلالاته الاستنهاضية. إن الإجابة عمـا أوردنا يمكن الولـوج إليها من خلال الاستنـاد إلى مجمل الخطاب

المقاوم باعتباره خطاباً مكتوباً وشفهياً ويمتد في مراحل تعود إلى بدايات نشأة الفعل المقاوم. ولكننا نهدف إلى مقاربة الخطاب الشفهي المسنود إلى الزعيم نفسه، لتبيان ما يحمله من دلالات وتصورات وما يرسمه من آليات وتحديدات منهجية للوصول إلى الأهداف، فضلاً عن الوظيفة الاستقطابية لهذا الخطاب باعتباره أداة تواصلية تتحرك في دائرة الخاص والعام، ولكن قبل ذلك علينا تبيان فعل الكلام حين يكون سلطة ناشئة عن الكلام نفسه قبل أي شيء آخر.

في مجتمعات الديمقراطيات الحديثة يبقى كلام الزعيم مقروناً بالسلطة. ولكن حق الكلام الذي يمارسه الزعيم ليس فعلاً طقوسياً، يمارسه بإزاء الجماعة التي تظهر القبول التام لمعنى الكلام. هي تنصاع نحو القبول لاقترانه بالسلطة. ولكن على الزعيم أن يمارس مهمة الإقناع قبل كل شيء. قد لا يكون زعيماً متفوَّهاً، أو خطيباً متمكناً ولكنه يمتلك القدرة على الإقناع، في تنفيذ الوعود، والارتقاء بحال الجماعة، وإلا فللجماعة حق نعته بالكذب والزيف والخداع.

إن التبرير والإقناع يشكل جانباً من كلام الزعيم لكي يكون مقبولاً، هو كلام مقرون بقدرته على أن يكون كلاماً سلطوياً، لكونه يترتب عليه فعل إجرائي مشفع بالتنفيذ والاستجابة حتى ولو لم يحظ بالقبول.

مع أن مقتضيات السلطة تعطي للزعيم حق الكلام. ولكنه ليس حقاً حصرياً، فللقادة الخصوم حق في الكلام غير أن الفارق بينهما هو في حجم السلطة وعموميتها المترتبة على الكلام. فحق الكلام لغير

الزعيم هو كلام الرقابة والدحض، وهو كلام التبرير والإقناع من ناحية أخرى.

إنــه كلام يستند إلى الحــق ولكنه يغدو واجباً على الزعيم حيث يجب أن يكــون مقنعاً. إن الكثير من مشاهد التلفزة في بعض دول الغرب تبرز الزعيــم حين يعرض برنامجه الانتخابي أو أداءه بعد تبوئه سدة السلطة مقابل زعيم آخر منافس أو معارض له يتبادلان الدحض والإقناع لكليهما فــي آن معاً، وعلــى الجمهور أن يكون الحكم على الــكلام، مع أن الفارق بينهمــا أن الأول يستنــد إلــى كلام مشفوع بالسلطة، فــي حين أن الآخر يدلــي بالكلام إيذانــاً بالوصول إلى السلطة حتى يتحــول بعد كلامه إلى سلطة الكلام.

إن عمليــة الإقناع لا ترتكز على مضمون الــكلام وحسب، وإنما يجب اقتران الاقناع بمزايا شكلية تسهم في عملية الإقناع، وهي ظهور الزعيم مظهر الواثق من نفسه لما سيقول أمام الجمهور، حيث يبرز جورج بوش فــي كثير مــن الأحيان يتقدم إلــى المنبر بخطوات الواثــق من نفسه في مشيــة معتمدة وذراعين منفصلتين قليلاً عــن الجسد يتجه نحو المنبر بما لا يحوجه إلى الظهور بمظهر الارتباك، أو رئيس الحكومة البريطاني توني بلير حين يقف واضعاً ذراعاً عن على المنبر بانحناء والتواء جانبي للجســد والرأس فيما اليــد الأخرى مسنــدة إلى وركــه الخلفي، كدلالة علــى أنه سيد الكلام، حيــث لا تدفعه مهابة المشهد إلى الارتباك، وإنما إلــى الثقة الزائدة بأن ما سيقول ليس كلامــاً فارغاً أو كلاماً يختزن في

مضامينه بعض الخداع والزيف، لأنه كلام مشفوع باقتناعه هو نفسه قبل أن يجهد في إقناع الجمهور.

على هذا الأساس في مقاربة الحق وواجب الكلام يمكن الولوج إلى خطاب السيد نصر الله بوصفه كلاماً منطلقاً من زعيم ليس عليه واجب الكلام لمجرد أنه يفترض بالزعيم أن يكون متفوهاً، وإنما من خلال طبيعة الكلام نفسه بتحوله ليس إلى سلطة مفروضة الطاعة وإنما إلى سلطان على النفوس التي تنقاد إليه دون ارتباطه بموقع السلطة حيث يقتضي الكلام.

قد يسود الاعتقاد أن الإعلام المتلفز يعلب دوراً بارزاً في تحويل الزعيم إلى قائد كاريزمي لما لثقافة الصورة المقرونة بالعمل الدعائي المستخدم بأرقى ما توصلت إليه التكنولوجيا الحديثة من القدرة على التقديم والإيقاع المشفوعين بالإثارة والإضاءة والوقع الحثيث في إبراز أو تحويل وإنجاح الزعامة. ولكن في جانب آخر يلعب الإعلام نفسه دوراً في أفول زعماء آخرين لما يتمتع به من دور في تسليط الأضواء على جوانب الضعف والإخفاق أو حتى تحويل الإخفاقات المتواضعة إلى فشل جسيم يضع الزعيم على بساط النقد والتجريح وسرعان ما يؤدي إلى ضمور دوره لدى الجماعة أو ينتهي به إلى الأفول.

من هنا تقتضي المقاربة في تسليط الضوء على الكلام نفسه في خطاب السيد نصر الله عبر الأخذ بمستلزمات التحليل للكشف عن العناصر الملازمة التي تدفع الأفراد نحو التماهي والانقياد والطاعة للقائد نفسه.

٢- شكل الكلام

لعل إحدى المزايا التي يتصف بها الكلام الخطابي للسيد نصر الله هو ذلك التناسق الجمالي لمقاطع ومفردات الخطاب الذي تتخذ فيه المقاومة موقعاً محورياً مهما تنوعت موضوعات المقاطع واختلفت، فهي تدور حول موضوعة المقاومة في نشوئها وأهدافها وآليات عملها وتصوراتها وعلاقاتها وهمومها ومستجدات المشكلات والتحديات التي تتعرض لها، والتي تتخذ لها مقاطع متنوعة تتحول بعدها الأجزاء إلى كل متناسق يشد الذهن نحو إدراك الموقف الكلي. في حين أن المقاطع تنطوي على مفردات تتداعى على لسان الخطيب بانسياب يراعي مقتضيات التدرج في حال الصعود والنزول في نبرة خطابية تنطلق على نحو من الهدوء الذي قد يطول أو يقصر، ولكنه يتصل بحلقة وسطى قصيرة يتحفز معها الموقف وتشتد الطاقة وتتكور فيتماهى معها السامع في انشداد وتحفز وانحباس للطاقة الانفعالية، لتليها نبرة كلامية عالية غالباً ما تحتوي على مترادفات متدفقة بانسجام جمالي وبوتيرة واحدة يتداخل فيها ارتفاع النبرة المعززة بحركة لليد اليمنى، وتعابير للوجه الذي يكشف عن حال التماهي بين الخطيب ومحتوى الكلام نفسه. ثم لينتقل التماهي من الخطيب إلى الحضور الذي ينتهي إلى تحرير الطاقة الانفعالية المتحفزة حالما يصل الخطيب إلى نهاية في أحد المقاطع الكلامية، والتي تتخذ لها تعبيراً مادياً تبرز خلاله صيحات التهليل والتكبير وارتفاع القبضات وترديد الهتافات في نغمة وحركة تكشف

جماليتها المتناسقة عن الوقع السحري لكلام الخطيب ولحال التماهي مع الموقف.

إن القيمة التي يرتديها الخطاب شكلاً تنطوي على كثير من الأهمية التي تسهل عملية الاتصال الإدراكي لمكونات الخطاب، حيث تفيد المقاربة، بالإستناد إلى ما انتهت إليه بعض النظريات في علم النفس -وهي مدرسة الجشتالت- التي تعتبر أن الإنسان يدرك الموقف الكلي انطلاقاً من الشكل وانطلاقاً من وظيفة الدماغ نحو التأمل والإدراك لمكوناتها. وحتى ولو كان ثمة ثغرة وجدت بحال عدم تناسق أجزاء الكل الموحد يعمد الدماغ إلى ترتيبها وتنسيق مكوناتها. فلو كانت ثمة نغمات موسيقية تسير على نحو الانسجام التام سيراً تواصلياً ولكن من دون الوصول نحو نهاياتها عبر انقطاع فجائي، يعمد الإنسان إلى إكمالها بتمتمات مكملة لذلك التناسق الجمالي في النغمات، وكلما كان الموقف الكلي متناسقاً، خالياً من الثغرات، كلما كانت عملية الإدراك تنطوي على السرعة واليسر.

فالموقف الكلي هو الخطاب المقاوم في المبدأ والمنطلقات، وفي التوليف بين تنوع موضوعاته التي تنتهي إلى المبدأ نفسه وهو المقاومة، بما لا يحوج الذهن معها إلى التشتت بين أكثر من موضوع كلي، أو في موضوع كلي واحد ولكنه متنافر بين مكوناته وأجزائه ما يجعل عملية الإدراك لا تخلو من بذل جهد كبير في سبيل إقفال الثغرة.

أما إيقاعات النبرة الخطابية المتماهية مع طبيعة الموقف في حدته

وهدوئه حسب مقتضيات الحال، فهي تنم عن دراية كبيرة وبراعة فائقة في توظيف شكل الكلام نحو تعزيز حال الإدراك بالمضمون. وبهذا الأمر يكشف علم الدلالات أو الألسنية أن بنية الكلام ولو كانت واحدة إلا أن دلالاتها تتصل بجوانب شكلية أخرى، منها طريقة إخراج الكلام المنطوق أو إشفاعه بإيماءات الجسد. فلو دخل شخص على جماعة ما وألقى السلام بنبرة هادئة وآخر قام بالأمر نفسه ولكن بنبرة عالية مشفوعة بحواجب مقطبة وأسارير متجهمة لكان المدلول مختلفاً تماماً، مع أن الدال هو بنية الكلام المؤلف شكلاً من حروف السين واللام والألف والميم فثمة الكثير من الخطباء الذين تيسر لهم الظرف في الكلام ولكن دون أن تسعفهم مهاراتهم المتواضعة في الإلقاء، على تبيان ما تختزنه كلماتهم من مدلولات تتخطى أجزاءها ومكوناتها.

وعلى هذا الأساس من القدرة على مراعاة التدرج في إيقاع الخطاب، يمكن فهم غنى المدلولات التي يختزنها الكلام الخطابي للسيد نصر الله.

٣- في مضمون االكلام

أ- الهوية والسلطة

بالاستناد إلى الحقل السياسي، وإلى الرمزية الدينية للقائد في انتمائه إلى جماعة تشكل أحد المتفرعات الفقهية للدين، يمكن عقد مزاوجة بين خطاب الطائفة وخطابها السياسي الذي هو محور

اهتمامنا. فخطاب الطائفة يعني كيفية إنتاجه في ميدان دورته الفقهية القائمة على عملية التبليغ والممارسة للشعائر الدينية والطقوس العبادية في ميادين الزواج، والوفاة، وتأدية الفروض اليومية انطلاقاً من الخصوصية الفقهية للطائفة.

أما الحقل السياسي، فيعني كيفية تمفصل هذا الخطاب مع الواقع، بما يتمتع به هذا الواقع من خصوصية، تتعدى الطائفة، بكونها تشكل إحدى المذاهب الإسلامية المتنوعة في فهم كيفية ممارسة الشعائر الدينية، إلى منشأ هذه الخصوصية العائدة بدورها إلى كون الطائفة تشكلت على قاعدة ما كان مطروحاً على صعيد السلطة، وممارسة الحكم منذ وفاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فلقد كان شكل الحكم في الإسلام متفقاً عليه أثناء حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجهة الحاكمية التي شغلها هو بنفسه، وبعد وفاته طُرحت الاشكالية بين السنَّة والشيعة حول طبيعة النظام السياسي الاسلامي: الإمامة أم الخلافة. فالشيعة اعتبرت أن القيادة السياسية وإمرة المسلمين مستمدة من الإمامة الدينية والروحية القائمة بالوصية المنصوص عنها والمتناقلة في ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وانطلاقاً من مفهوم الشيعة في الحكم، يُشترط في الحاكم أن يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية، وأن يكون معصوماً عن الخطأ والزلل. وبعد غيبة آخر الأئمة الإمام المهدي المنتظر والمؤمل عودته حتى يقيم دولة الإمامة، طرحت الرؤى لدى الشيعة حول التعاطي مع مسألة الحكم والسلطة.

لقد تمثلت إحدى هذه الرؤى بعدم جواز قيام دولة إسلامية أثناء غياب الإمـام لأن من يملأها هو مغتصب لحقه في الحكـم، وأفضى ذلك إلى نشـوء ميتولوجيا شيعية تستند إلى ثقافة جديدة، قوامها قعود المؤمنين وانتظـار عـودة الامام الثاني عشـر لإقامة دولته. لكن هـذه النظرية لم تـلاق استحساناً من بعض الفقهاء الذيـن اقتربوا من مفهوم بديل يقوم علـى مبدأ ولاية الأمة على نفسها في عصر الغيبة، فجاءت هذه الصيغة الاجتهادية في الفقه الشيعي لتحل اشكالية التعاطي مع الحكم والسلطة في ظل غيبة الإمام المعصوم[١].

وقـد مثلت رؤيـة الفقيه الشيعي محمـد حسن النائينـي الذي انفرد بالمرجعيـة الشيعيـة عام ١٩٢٠ إحـدى هذه الرؤى، وعلـى أساسها قاد الحركـة الدستورية الايرانية التي سميت «**المشروطة**» والتي هدفت إلى تقييد السلطة المطلقة للحاكم الزمني.

ولقد وظف النائيني هذه الآلية في الحكم كي يشرعن حق ولاية الأمة على نفسها في عصر الغيبة كشأن سياسي وليس كشأن شرعي[٢].

وبهـذا المعنـى فلا تعـود الأمة ترزح خـارج الدولة، كمـا أنها ليست مدعـوة لتشكيل حكومـة إلهية دينية، بل حكومة مدنيـة عادلة تقوم على رقابة الأمة.

(١) محمد جمال باروت، يثرب الجديدة: الحركات الإسلامية الراهنة، دار رياض الريس، بيروت ١٩٩٤، ص ٦٥.
(٢) محمـد حسـن النائيني، تنبيه الأمـة وتنزيه الملَّة، الغدير، العددان ١٢-١٣، المجلـد الثاني، القسم الثاني، آذار ١٩٩١، ص ١١٠.